الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

إلى

محمد الباز

فقط... كان مُقدَّرًا.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يوميـات السندريلا في القصر

(1)

عندما أرادت سندريلا أن تحضر حفل الأمير لم تكن تُفكِّر في أن يُحبَّها الأمير، أو أن تُحِبَّه، هي فقط أرادت أن تستعيد لحظة من حياتها القديمة عندما كان والداها على قيد الحياة، وكان بيتهم -الذي هو أكبر من بيوت كثيرة، وأصغر من قصر الملك- تُقام فيه الحفلات الراقصة في الأعياد، وكانت هي الصغيرة ترقص مع والدها حينًا، ومع أُمِّها حينًا آخرَ بكثير من البهجة وخُلُوِّ البال.

بعدما ماتت الأم أظلم البيت، وعندما أُقيمت الحفلات بعد دخول زوجة أبيها، صارت هي دائمًا بعيدةً وحيدةً بحجج كثيرة.. سندريلا لا يصح أن تسهر، سيُرهقها السهر، غدًا ستكبر وتحضر كل الحفلات.

كبرت السندريلا، لكن أباها غاب، وغابت معه الحفلات، وابتلع الطمع غرفتها، وفساتينها، فقطنت في السندرة. وعاشت خادمةً. لم تكن سندريلا ناقمةً على زوجة أبيها وابنتيها، فهي تمتلك روحًا طيبة لا ترى غير الجانب المُضيء في أكثر الأشياء ظُلمةً، كانت مخلصةً ومتسامحةً دون تكلُّف. بل إنها أشفقت على البنتين، وتمنَّت لو أنهما تمتلكان بعضًا من المهارات التي تُحسنها، وودَّت أن توجههما إلى حقيقة أن العالم يتغير، وحياة الإنسان قد تنقلب رأسًا على عقب.. فبأي مهارة ستُواجهان العالم وهما لا تجيدان غير الثرثرة، لكنها خافت أن تجرح مشاعرهما وتفهما أنها ربما تضرب المثل

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بنفسها، أو أنها تتمنى أن تموت أمها، فهذه الأفكار لا يمكنها أن تَرِد على ذهن السندريلا، كما أنه لم يرِد على ذهنها أن تكون المختارة التي يحبها الأمير ويتزوجها، فقط كانت تريد حضور أي حفل، والاستمتاع ببعض من البهجة، وبعض من الفرح، وبعض من المُباهاة.

هل أحبَّت سندريلا الأمير؟ هذا سؤال تشكيكي.. تفكيكي.. يهدف إلى بثِّ الزعزعة، وهزِّ الثوابت، وهل خُلِق الأُمراء إلا لكي تقع الفتيات في حبهم؟! ليس المهم من تحب الأمير، بل الأهم من سيقع الأمير في حبها.

قبل أن تُزَفَّ السندريلا للأمير، أراد الأب الملك أن يختبر قدرتها على القيام بدور الأميرة زوجة ولي العهد، فدعاها للإقامة في القصر كي تعتاد التقاليد وتتدرب على البروتوكول الملكي.. وبالفعل انتقلت سندريلا لجناح خاص في القصر.

لم تدرك سندريلا أن العالم به هذا القدر من الخدم؛ في قصر زوجة أبيها كانت هي الخادمة الوحيدة، تقوم بكل المهام: التنظيف، والطبخ، والغسيل، كان هناك الجنايني، وهو في الوقت نفسه البوَّاب الذي يشتري كل ما يحتاج إليه قاطنو البيت من مشتريات، والخيَّاطة تأتي لزيارة زوجة أبيها وبناتها أول كل موسم تعرض عليهن الأقمشة الجديدة.

في القصر هناك خادم لكل شيء: خادمة لإيقاظها، وثانية لتجهيز الحمَّام، وثالثة لاختيار ما ترتديه من ملابس، ورابعة لتغيير الزهور من مزهريتها، وخامسة لترتيب سريرها وفتح ستائر غرفتها، وسادسة لتصفيف شعرها

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وتهذيب أظافرها وطلائها، وسابعة وصيفة تُرافقها في التمشية، وثامنة وصيفة ترافقها عند استقبالها أحد الضيوف.. وتاسعة.. وعاشرة...،..

أرادت سندريلا أن تقوم بأشيائها بنفسها، هي اعتادت على خدمة نفسها، بل وخدمة الآخرين، قررت الاستغناء عن كل هؤلاء الخادمات، لكن مشرفة الخدم أخبرتها أن هذا القرار سيكون كارثة، وسيؤلمهن كثيرًا؛ لأنها ستتسبَّب في طردهن من القصر وقطع أرزاقهن.. وهذا ليس بالفأل الحسن أو القرار الجيد لأميرة عليها أن تكتسب محبة شعبها، كعادتها تفهَّمت سندريلا هذا الأمر، وكان عليها أن تعتاد على كل هؤلاء الخَدَم.

أشياء كثيرة ستعتادها سندريلا في القصر.. إلا أن سندريلا التي اعتادت الحياة على الهامش تمامًا، وأن تقتات على ما يتبقَّى من طعام ابنتي زوجة أبيها، لم تتحمل كَمَّ الإضاءة الكبير في القصر، فأخذت تتبع اللمبات

Telegram:@mbooks90

الزائدة وتأمر بإطفائها، هالها أن القصر الملكي يستهلك نصف كهرباء السد الكبير المبني جنوب المدينة، بينما يوزع النصف الآخر على بقية الشعب، وقد يحدث أن تنظر سندريلا من شُرفتها في المساء وترى قسمًا أو ضاحية من ضواحي المدينة مُطفأ الأنوار، فتستدعي مشرف القصر وتطلب منه أن يخفف من إضاءة القصر.. هل سيعجب الأمير بالسندريلا المتقشِّفة؟ أم أن وزير الملك سيحذره من نزعة اشتراكية بدأت تسري همهماتها بين الشعب، ومؤازرة شعبية للسندريلا تخلق في الأمسيات بين الساهرين على المقاهي؟!

على الملك أن يحمي دائمًا عرشه.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وهذا ما سيفعله الملك.

(2)

تُدرك سندريلا أن كلمة «مساواة» كلمة خادعة، وأن المساواة القانونية ليست كافية لتحقيق العدالة، وكانت على يقين أنه لم يُتح لجميع الفتيات الحضور إلى الحفل الملكي. على الرغم من تبجُّح وزير الملك بأن كل الفتيات -حتى الخادمات- كان لهن نصيب وحظ في الحضور الملكي، هذا اللمز لم يغِب عن فطنتها، فارتفع صوتها موجهةً حديثها للملك:

- مولاي، اسمح لي أن أوضِّح أمرًا قد لا يغيب عن فطنة الوزير المبجل، وهي أن الخادمات لهن أجر، وإن كان الأجر ضئيلًا. ويمكن للخادمة أن تدَّخر جنيهًا أو اثنين، كما أن الخادمات يحصلن على فساتين سيِّداتهنَّ التي يستغنين عنها، أو تملُّها السيِّدات الشابَّات، صحيح أن هذه الملابس أحيانًا ما تكون غير مُسايرة لخطوط الموضة في ملابس حفلات الكوكتيل والسهرة، لكن لا يستطيع أحد أن ينكر حق من ترتديها في حضور حفل راقص، أو حتى ملكي.. أما درجة الرقي والأناقة فيمكن التغاضي عنها عند الحديث عن المساواة وتلاقي قوى الشعب، لكن ماذا عمَّن ليس لديها عمل وتقوم برعاية والديها وأشقَّائها دون أن يكون لها أجر؟ ماذا عمَّن لا يعرفن كلمة ادخار لأن الرزق الذي يأتي لا يُشبع الأفواه الجائعة؟!

شعرت سندريلا بأنها تمتلك طاقة وقدرة على الكلام لم تكن لها من قبل، وأحسَّت بأن كثيرًا من الثوابت قابلة للتحول.. قبل الإعلان عن حفل

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الأمير بأسابيع قليلة.. قرأت إعلانًا عن الأعمال الكاملة لفرانز كافكا، قد يظن كثيرون أن سندريلا كانت معدمة تمامًا، وهذا التصور يُجانبه كثير من الصواب، فلم تكن «المحفظة» التي تضعها على «الكوميدينو» بجوار سريرها يخلو من النقود، صحيح أن سندريلا كعدد كبير من الخادمات في بيوتهن لم يكن لها أجر معلوم ومحدد يمكن أن يسجل في حسابات الضرائب أو يضاف لنسب الناتج القومي، لكن جنيهات قليلة كانت تأتي لسندريلا من إيراد بيت ورثته عن أمها، وقد حرص محامي الوالدة على ضمانة وصول الجنيهات إلى يد السندريلا بعيدًا عن عيني وأنف زوجة الأب.

استكملت سندريلا ملاحظاتها، ووجَّهت تساؤلها مباشرة للوزير:

- هل وفَّرت حكومة جلالة الملك وسيلة نقل مناسبة لكل الفتيات.. كيف يتوقع وزيرنا الأكبر أن تحضر الفتيات المقيمات في ضواحي المدينة وفي الأرياف.. أم تركهن يركبن الميكروباص أو التوكتوك؟

كان الغضب قد بلغ من الوزير مبلغه، فصاح: «سيدتي الأميرة المستقبلية.. الميكروباص والتوكتوك هذه الحشرات المعدنية لا تستطيع أن تقترب من العاصمة الجديدة».

التقطت سندريلا الخيط:

- حتى خطوط النقل العام: الأتوبيسات، والميني باص، والمترو، لا تصل للعاصمة الجديدة.

لم يفهم الوزير ما ترمي إليه سندريلا، وخُيِّل إليه أنها تلف الحبل حول

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

رقبتها لتشنق نفسها، ماذا تريد هذه البلهاء؟! هل تريد أن يُعاد الحفل؟ الخاسر دائمًا من يشكك في إجراءات وضوابط المسابقة، فما بالها وهي الفائزة تشكك في ضمانات سلامة النتائج؟

أربكت الابتسامة الغامضة التي أضاءت في عيني الوزير سندريلا وانتبهت.. إلى أين سيصل بها تفكيرها.. لكنها لم تستطع الصمت، وأكملت وكأنها ليست طرفًا في الأمر:

- كيف يضمن وزيرنا، وهو المسؤول عن تنظيم هذا الحفل الملكي، والذي يعتبر ركيزة أساسية في عالم الأساطير، أن هذا الحفل كان متاحًا لكل الفتيات، وأن الإجراءات أتاحت لجميع المرشحات أن يُقدمن برنامجهن الانتخابي.

كان الملك يتابع مشاكسات سندريلا ووزيره الأول، بل إنه يشجع كلا الطرفين بإيماءة هنا، نظرة استحسان هناك.. فحتى تلك اللحظة لم تكن سندريلا قد أصبحت رسميًّا عضوًا في العائلة المالكة، ومن ثم فما يراه الملك لم يكن أكثر من صراع ديوك، وتسلية تتم بمباركة الملك.. فلتتراقص حبَّات الكستناء على الفحم الملتهب، ولكن مستقرها في النهاية سيكون في معية الملك.

(3)

كشفت الإقامة بالقصر الملكي لسندريلا عن عشرات الحقائق.. الحقائق متعددة الأوجه، والتي هي كلها حقيقة لشيء واحد.. لم تستوعب -وهي

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الفتاة البسيطة التي قضت عمرها دون أن تشعر بتناقض بين كونها ابنة صاحب القصر، وكونها الخادمة التي تقوم بكل المهام- كيف تكون هناك حقائق كثيرة لحقيقة واحدة.. فسندريلا عندما كانت تقوم بالمهام المنزلية وأعمال الحديقة والتسوق قامت بذلك من منطق أنها فتاة مسؤولة عن عائلتها، تُعاون وتُساند أختيها غير الشقيقتين فيما لا تستطعن القيام به، فسوء معاملة زوجة الأب وابنتيها لم يسحق روح سندريلا، أو يشعرها بأنها أدنى منزلةً، فهي تُدرك في أعماقها حقيقة صورتها، ولم يكن لديها من الوقت ما يسمح لها بكثرة التطلع والالتفات للمرايا الخارجية التي حتمًا ستُظهر تناقضًا صارخًا بين كينونة الشابة الوارثة، وصيرورة الخادمة. ربما تكون المرايا

Telegram:@mbooks90

الكثيرة المتجاورة والمُتوازية على جدران القصر، وفي بعض الممرات، هي ما ساعدها على الاستيعاب أو التفكير أو الانتباه لهذه التعددية، لهذا التجاور المنقسم المُتشظِّي لأجزاء. عندما تنظر لنفسها تجد عدَّة صور تتداخل، في إحداها طويلة، وفي الأخرى سمينة، وجهها مُدوَّر، ممطوط، ما هذه الحيل؟ لماذا يبدو قلم الرصاص الموضوع في كأس من الماء منكسرًا.. تراه قطعتين.. لا قطعة واحدة متماسكة.

سألت حكيم القصر، أجابها: «الحقيقة غامضة ومُلتبسة».

- وماذا عمَّا نعرفه؟ عن رأينا في العالم... في الأشياء؟

- أميرتي، الرأي هو أول عائق عليك تخطِّيه للوصول للحقيقة.

نظرت له سندريلا بدهشة، لكن الحكيم لم يشفق على حيرتها وعاجَلها:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- سأقول لك ما قد يُثير دهشتك أكثر: «الرأي دائمًا مُخطئ».

- وكيف أعرف الصواب من الخطأ؟

- الشيء يُقَيَّم من خلال تبعاته.

- إذًا كل شيء تكون تبعاته جيدة فهو شيء جيد.

- حتى هذا أمر غير مُطلق، فالجيد جيد بالنسبة لمن؟ هل يمكنك الحكم أيهما أفضل؛ الشابة التي تهب نفسها للدير وتصبح راهبةً؟ أم الأم التي تهب حياتها ووقتها لأطفالها؟ أيهما أعلى قيمةً في نظرك؟

- الأعلى قيمةً ما يحقق الصالح العام... صالح الشعب، صالح أكبر عدد من الناس.

- كل هذه الكلمات أيضًا نسبية، وتقود لمزيد من التساؤل، لكن لا أستطيع أن أُنكر أنها مهمة، لأن السؤال يقود إلى المعرفة.

- وإذا لم يكن هناك سؤال؟

- لن تكون هناك معرفة، لا شيء يحدث تلقائيًّا.

كانت قد قرأت في كتاب الفلسفة للصف الثالث الثانوي:

«إذا كان سطح البحر جميلًا وخلابًا ورائعًا فإن الغوص إلى باطنه وقاعه يُتيح لنا فرصة أجمل وأكثر روعةً؛ ففي أعماقه الكنوز، والجواهر، واللآلئ الثمينة».. لكنها الآن تتساءل: ماذا عن الحيتان وأسماك القرش والعمق

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الأسود، حيث لا ضوء، فقط الظلمة، ربما كان على مؤلفي الكتّاب القول الغوص بمقدار وعمق معين.. ليس كل ما نتعلمه صحيحًا تمامًا، فالمعرفة ليست دائمًا جاهزة أو نهائية.

إجابات الحكيم لم تجعل سندريلا تدرك الحقيقة، لكنها ألقت بها إلى شاطئ التساؤلات، حيث الشك واللا يقين، وكان سؤالها المُباغت لنفسها ما الذي تفعله في هذا القصر؟! حيث القواعد والدرجات والتراتبيات، وكانت هي بلا مسؤوليات -حقيقية بالنسبة لها- فهناك مشرفون على كل شيء.. اختيار أنواع الطعام، وصيانة أي أعطال بسيطة.. والكهرباء.. والمياه، وتنسيق الحدائق.. لم يكن عليها سوى أن تكون أميرة، وأن تهتم فقط بحقيقة كونها أميرة، ولم تكن سندريلا تستطيع أن تسأل أيًّا من المحيطين بها ماذا تعني كلمة أميرة؟ ماذا تفعل الأميرة؟ الأميرة عليها العبء الأكبر؛ فهي مسؤولة مع الأمير بعد الملك، عن خدمة الشعب، هذه كانت الحقيقة التي تعرفها.

لماذا جئت لهذا القصر؟ أم أن الأولى أن أسأل كيف جئت إلى القصر؟ الساحرة، ثمرة القرع العسلي، الفئران، من يصدقها.. هل يمكن لأحدها أن يُطلب منها أن توضح كيفية حضورها الحفل بعد أن أغلقت زوجة أبيها عليها السندرة ومزّقت الفستان الذي صنعت.

توجهت للأمير، أدركت أن عليها أن تخبره بالحقيقة التي تعرفها ويجهلها هو وكل المحيطين به.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- سمو الأمير، أريد أن أعترف لك بشيء، لقد ساعدتني «جنّية» كي أستطيع حضور الحفل الراقص، و...

لم يُفاجأ الأمير، بل ابتسم، ومدَّ لها يده:

- سندريلا، وهل تعتقدين أن أحدًا يستطيع أن يأتي دون مساعدة خارجية؟ هل تعلمين كيف تتأسَّس ممالك السماء أو الأرض؟ بما يُحكى من أساطير.. ملك تُرضعه ذئبة.. وملك يُولد من دون أب، وملك تجمع زوجته أشلاءه ويعود للحياة، و... و...

- أنت تعرف كيف جئت. فهل تعرف لماذا؟

- جئتِ كي تكوني أرضي، عصاي التي أتّكئ عليها، جئتِ كي تمنحيني اسمًا، فقد مللت طوال دهور طويلة والكبار والصغار يرددون سندريلا والأمير، دون أن يتساءل أحدهم عن اسمي.. أو يفكر في أن يمنحني أبسط حق لإنسان.. «اسمه».

ابتسمت سندريلا، الآن أُخمّن لماذا اخترتني.

- نعم. لأنكِ وحدكِ دون كل المدعوّات من سألتني عن اسمي.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

سنوات الظل والتيه

الحلم الذي لن أرويه لجدَّتي

رأيتُ حلمًا.. وأنا كثيرًا ما أصنع أحلامي، لكنني هذه المرَّة لا أخترع حكاية، كما أن التردد الذي أُبديه، وعدم رغبتي في حكيه، والقتامة الباردة التي تقبض صدري كلها تؤكد أنه فعلًا حلم، وليس نسيجًا صنعته مخاوفي.. في الغالب لا تحتوي أحلامي على أُمنيات، ولكنها رُؤى تُحمِّلني وزر تحقيقها، ولأن التجارب تجعلنا أكثر حنكةً فنتعلم كيف نتخيَّر الفصلات، والنقاط، والحروف، التي نُخبر بها عن رُؤانا، فإنني أتردَّد الآن أمام مجرد الرغبة في إعادة رواية حلمي. ثم إنه لماذا عليَّ أن أتطوَّع وأحكي عن شيء أنا وحدي الشاهد عليه، ولم يعرف أحد بحدوثه غيري؟ ربما وحدها جدَّتي تعرف، لو أنني أستطيع التأكد من أنها حقًّا رأت ما رأيت.

التجارب التي تعلمنا الحكمة تثقلنا بالشك، وتبتلينا بعدم اليقين، فعندما كنت صغيرة كانت جدَّتي تعرف كل أراه من أحلام، كأننا كنا نشاهد الحلم نفسه، أو كأننا نتشارك مشاهدة المسلسل التركي «حريم السلطان»، كما نفعل في التاسعة مساء كل ليلة، وفي ظهيرة الغد التالي نستعيد معًا قصة الحب بين «السلطان» و«هيام».

قدرتها على إكمال حلمي تبهرني، وتؤكد لي أن الآخرين يمكن أن يشاركوني الحلم نفسه، هذه الفكرة في طفولتي كانت مُطمئنةً ومُريحةً، خاصة إذا كان بحلمي أشباح ونساء وأيادٍ مقطوعة، كنت واثقة وأنا في الحلم أن جدَّتي التي

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كنت أنام بجوارها في السرير ستدفع هذه الأيدي قبل أن تلمس بأطرافها المُهترئة وجهي، ففي الصباح تجدني جدَّتي مُلتصقةً بها فتسألني: «حلمتِ بإيه يا بيضا؟»».

نادرًا ما أبدت جدَّتي انزعاجًا من أي حلم رأيته، ولكنها كثيرًا ما أوصتني بألا أخبر أحدًا بحلمي، كما حذَّرتي ألا أتفوَّه بكلمة عندما أخبرتها أني رأيت «سماح» ابنة عمَّتي تقف حزينة حائرة في حقل برتقال كبير، وكيف أن كل ما كانت تجمعه من برتقال كان يفسد في يدها، ويتحول من اللون البرتقالي الزاهي إلى اللون الأسود، قبل أن تنكمش البرتقالة وتصغر وتصغر، وتتحول إلى رماد أسود، جعلني أستيقظ وأنا أعطس. لا أعرف لماذا قلت لجدَّتي بعد أن انتهيت من روايتي للحلم: «تيتة، سماح رسبت في امتحان الإعدادية».

اندهشتُ لمقولتي، وأنَّبتُ نفسي، وتوقعت أن تلومني جدَّتي، أو تنهرني عن تفكيري السيئ تجاه ابنة عمَّتي، لكن جدَّتي ربتت بأسى على كتفي وقالت بشرود: «كل واحد يا بنتي بياخد نصيبه».

منحتني طفولتي يقينا بأن جدتي تشاركني أحلامي، لكنني في لحظة ما، ومع بداية المراهقة انتابني شعور بالشك، ورصدت أن جدَّتي تستخدم خبرتها وفطنتها كي تكمل بعضًا مما تستنتج مما أحكي، فشعرت بالخديعة لسنوات، ولم أخبرها بكشفي، لكن الأيام لما طالت، وعندما تساوى ظل حياتي أيقنت أن النعمة بين روحينا كانت موصولةً.

عُدتُ أروي لجدَّتي كل أحلامي، في حين لم تُبادر هي أبدًا بأن تحكي لي

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أحلامها، حتى كان صباح الجمعة الماضي، استيقظت مضطربة.. كان حلمًا قصيرًا خاطفًا، لكنه كان مُوجعًا، وكنت أخشى تفسيره، أو كنت أخمن التفسير، ولكن أرفضه، من هي الشمعة التي طوَّحت شعلتها رياحٌ ساكنةٌ؟! شعرت بأن روح الشمعة تستقر في صدري، وكان اختراق الشعلة لصدري خاطفًا مؤلمًا، وكان مجرد تذكُّري لتلك اللحظة كافيًا بشعوري بالانقباض، فبقدر ما امتلأ صدري بكثافة لم أدرك كُنهها بقدر ما انسحب الضوء من حلمي، وحل ظلام بارد لَزِج.. لم أستطع أن أحكي حلمي لجدَّتي، وهي في ذلك الصباح لم تسألني.. بل قالت لي بابتسامة هادئة: «لا تخافي أبدًا، ستجدين كل ما يضيع منك. وسيسير طريقكِ إليكِ. وسأكون معكِ دومًا»، لكن جدَّتي لم تعد معي، وصرتُ أحلم وحدي. هل كان حلمي بالألوان؟! أم بالأبيض والأسود؟!

كنت في الحلم في مكان ما خارج القاهرة على الطريق بين المنصورة والقاهرة، بالتحديد بين بنها والقاهرة.. لم تكن هناك معالم واضحة تمنحني يقينًا بمكان وجودنا، غير أن الغريب أن زوجي كان يقود السيارة، ولم يكن معنا سائق، لم يكن هناك معالم محددة غير امتداد الزراعات على جانبي الطريق، وبينما نسير والمقود في يد زوجي اليُمنى، أخرج بيده اليُسرى ساندويتش من كيس ورقي بجانبه، اندهشت، هذه ليست عادته، فهو غير أكول، ونادرًا أو قليلًا ما يأكل أثناء السفر، أردت أن أساعده، بينما يفك غلاف الساندويتش، فأمسكت بالمقود، لكننا انحرفنا عن الطريق.. لا لم نحرف، فجأةً ظهرت شجرة في وسط الطريق، وقد وقفنا، أو تجمَّد كادر الحلم قبل

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أن نصطدم بالشجرة التي انبثقت قبل سنتيمتر واحد من مقدمة السيارة، لم يكن زوجي غاضبًا، لكنه لم يكن راضيًا، وشعرت في الحلم بأن وجودي لا فائدة منه، بالعكس بدا وكأن إمساكي بالمقود هو الذي استدعى الشجرة كأنني ضغطت على زر النداء الآلي لها، أو أنني أستدعي كل المعوقات في طريق زوجي، لم ينطق لسانه بذلك، لكن طريقته في إزاحة يدي عن المقود، صرخت: «هذا يكفي»» كانت حركته محملة بطاقة من الغضب والاعتيادية كأن هذا الأمر يتكرر دائمًا، وأنه لا فائدة أو أمل، كما تصيغ الأمهات تعبيرهن عن مللهن من تكرار عدم غسل الأطفال لأيديهم بعد الأكل، أو غسل أسنانهم، أو قذف الملابس في كل مكان على الكنبة والسرير والسجادة.

هل أُذكِّره بأنني أحمل كل صباح جواربه من «الريسبشن» إلى الحمَّام دون تذمُّر؟ سأكون الخاسرة في المقارنة، فقد كنت ممتنة لنظامه الدقيق، وإصراره على أن يخلع جواربه في مكان محدد تحت كرسي الفوتيه المُواجه لتمثال العبد البحَّارة.. أنا دومًا مُمتنَّة له.. نظامه الصارم يجعلني أخجل من المعاناة التي أسببها له باستدعائي الدائم للأشجار والطيور والأمطار في طريقه.

هي أشياء لا تعوقه عن مساره كثيرًا، لكنها تخرجه من إطار الانضباط إلى عالم الفوضى الذي يكرهه.. استدعائي للحكايات.. لأخبار الجيران، لحكايات الصديقات، وقصص الأولاد.. أنا لا أحلم أبدًا بأولادي.. دائمًا في أحلامي أكون وحدي في مواجهة العالم، أو وحدي مع زوجي.

بعد أن ثبت كادر الشجرة أمامنا، تحركت السيارة، دخلنا قرية من

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

القرى التي على الطريق، لم يظهر في الحلم مدخل القرية، أو كيفية دخولنا لها، لكني وجدت بمهارة مونتير، وبحركة مونتاج حادَّة أننا في وسط بيت ريفي، أجلس على «كنبة»، بينما زوجي واقف ساند كتفه على حائط طيني، مرتديًا بالطو أسودَ طويلًا، يطابق أداؤه في هذا المشهد من الحلم أداء «أحمد السقا» في النصف الثاني من فيلم «تيتو» مسيطرًا، ذا خبرة، كأنه يعرف هذا البيت جيدًا، وله أيادٍ على أصحابه، صورة عصرية من المعلم «سلطان» في فيلم «سمارة». من خلف باب خشبي في وسط الدار خرجت سيدة طويلة وعريضة، تذكَّرتُها، واحدةً من الشغَّالات الكثيرات اللاتي مررن بأيامي، هممت أن أُحيِّيها: «ازيِّك يا...». لكنها أبدت فعلًا غريبًا، حيث نظرت لي من فوق لتحت وبتفحُّص، لم أستطع متابعة تفاصيل انسياب عينيها على جسدي وملابسي، وقالت: «إنتِ بقى سامية؟».

سامية.. سامية، دون ألقاب؟ دون حواجز؟ كأني غريمتها، أو كأن هناك أي مجال مشترك يمكن أن نتساوى فيه، لماذا يبدو أنها لا تعرفني، كأننا لم نلتقِ من قبل، عملت لديَّ لمدة ثلاثة أشهر، واختفت فجأةً، أنا أيضًا لم أخبرها أنني أعرفها، ظهرت بغتةً، واختفت بغتةً، وظل وجودها جاثمًا على المكان، وبقيت رائحتها التي هي مزيج من اللبن الرائب، والماء العطن، والعرق، تملأ أنفي، في حين سيطر جلبابها بزهوره البرتقالية الفاقعة على مجال رؤيتي على الرغم من اختفائها.

طالب زوجي بتجهيز الأشياء التي سنأخذها معنا، خمَّنت أنها الفطير المشلتت، والبط، والجبن، والعسل، المأكولات التي يُوصي بها زوجي عندما

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

نعود من أي زيارة للأرياف.

اختفى الجميع من المكان، غابوا خلف الباب الخشبي البدائي المصنوع من ألواح عرضية من الخشب، يفصل الباب بين الصالة وجزء من البيت لا أعرف ما خلفه.. يأخذني هذا الباب للباب الذي يفصل بيت جدِّي، حيث الجزء الأول قاعتان للضيوف تطلان على الحديقة الأمامية، وتكعيبة

Telegram:@mbooks90

العنب، وتفتحان على ساحة واسعة ترتفع عدَّة درجات عن مستوى الحديقة، تؤدي الساحة لفناء آخر تفتح عليه أربع غرف نوم، ثم باب ثانٍ يؤدي إلى مساحة أوسع يفتح بها المطبخ، والمخزن، وغرفة الخزين، والحمَّامات، وينتهي هذا الجزء بباب حديد يفتح على الحديقة الجانبية، حيث تنمو أشجار البرتقال والجوافة واليوسفي والمانجو، وتطل غرف الجلوس والنوم البحرية بشبابيك طويلة عليها، بينما تطل الغرف القبلية على أرض واسعة وساقية تدور بها جاموسة مغطاة العينين، وغيطان تمتد للترعة التي تروي أراضي القرية.

تجلس جدَّتي خلف الباب الخشبي لغرفة الخزين حينما تُناقش أمرًا عظيمًا مع أولادها، كانت غرفة الخزين مكمنها، وإذا أرادت معاقبة أحد منَّا نحن الصغار، أو الخدم، أو لوم أحد من الكبار من أعمامي وعمَّاتي تختلي به في غرفة الخزين، الباب دائمًا مفتوح، لكن إغلاقه يعني أن هناك أمرًا خطيرًا، سرًّا.. عندما رفضت عمَّتي «ضحى» الزواج من ابن عمِّها، اجتمعت جدَّتي مع أبي وعمِّي في هذا المخزن، حشدتهما ليُناصرا موقف شقيقتها، وخرجا ليُعلنا لجدِّي تأييدهما لموقف أختهما، فلا يُعقل أن تتزوج «ضحى» المتعلمة من

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فلاح حتى لو كان سيرث نصف أملاك القرية، تسمَّعتُ لجدَّتي من خلف الشباك المشغول بالسلك الحديدي، ولما بدأت صحَّة عمَّتي في الاضطراب، وظهرت عليها أعراض هلوسة وسرحان وهياج، وذهبوا بها للأطباء في القاهرة، والزقازيق، ولم تكن هناك من فائدة غير الكدمات الزرقاء وتساقط الشعر الذهبي لعمَّتي «ضحى» التي ورثت زُرقة العينين من جدِّي، وذات يوم جاءت زوجة عم أبي، سحبتها جدَّتي لغرفة الحزين، وقالت لها: «أبوس إيدك، تفكي اللي انت عملاه لبنتي، هجهّزها لك وأجيبها لحد عندك من غير شبكة ولا مهر». لكن زوجة العم صاحت: «عيب يا حاجَّة، وحياة اللي حطّيت إيدي على قبره، مالي صلة باللِي فيه (ضحى).. أعدم صحِّتي، والعيش والملح.. ده كل شيء نصيب. أنا خلاص خطبت لابني».

انهارت جدَّتي في البكاء، وكان هذا آخر أمل لديها.

ما زالت نهنهة جدَّتي وحيرتها يأتيانني من خلف باب مغلق، وأنا وحدي متكومة في صالة، لا أعرف ماذا يدور بالضبط في الداخل، لكن مخاوفي هي السائدة كأن حزنًا ثقيلًا لن أتحصَّل على سواه عندما يفتح الباب.

لم تكن عادة زوجي أن يختلي بأحد، ويتركني وحدي، حتى في بيت أهله؛ عندما يدخل من الباب يُنادي «سامية فين؟»، وعلى الرغم من محاولات أمه وشقيقاته شغله عن سؤاله بطرح تساؤل مثل: «شُفت خالك؟ عامل إيه؟ الحاج سميح باع..»، فيقاطعهن: «فين سامية؟ سامية». وأكون خلف أحد الأبواب أنتظر للحظة المناسبة التي أظهر فيها، فيحيط عنقي بذراعه، ويهمس لي: «كويسة؟ فأرفع عينيَّ إليه، وأبتسم».

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وعندما تطلبه شقيقته في كلمة سر، أو موضوع على جنب، يتحرك وذراعه حول كتفي، فأتحرك معه، ويدفعني بحركة جسده للأمام، فكأنه يقدمني على نفسه، وأنه لا أسرار تخفى عليّ، لكنه لم يدعُني لمصاحبته لما وراء الباب المُستعرض.

طالت مدة انتظاري، وزادت مخاوفي، لكني لم أجرؤ على النهوض والتحرك ودفع الباب المغلق، لديّ إحساس بالخوف، الخوف من مجهول سيكون عدائيًّا تجاهي.. يمكن للمرء أن يضع يده مرّة واحدة في قُبّعة الساحر ليلمس ورقًا مقصوصًا مُتلوِّنًا، وإذا بهذه القصاصات الملونة تتحول لفأر تلمسه الصغيرة في قُبّعة الساحر دون حذر، تقترب الفتاة التي لا تعرف أبعاد ما بالقُبّعة القطيفة السوداء، والمزينة بنجوم ذهبية، تحرك يدها على الجسد الفرائي اللدن حتى تقترب من الرأس، لكن ألمًا حادًّا يُباغتها، فتسحب يدها صارخةً لتخرج يدها وفأر أسود يغرس نابه في إصبعها، تمطره للأرض، ومعه تتناثر قطرات دم على ملابسها، وعلى التورتة، وعلى الحاضرين، وتقضي ليلة ميلادها العاشرة في المستشفى، بين الغُرز الثلاث لسن الفأر السحري ومضادات التسمم والسُّعار، انتهى عيد الميلاد، واختفى الساحر، وبقيت ندبة في إصبع الصبية تؤلمها إذا أقدمت على مغامرة، أو دخلت عالمًا مجهولًا.

ظهر في كادر الحلم رجل ضخم قوي مفتول العضلات، يمتلك قوة لا تُتاح لمزارع، قوة من تفرَّغ لتربية عضلاته. جلس بجواري على الكنبة، رحَّب بي، ومدَّ وجهه لخدّي، حاول أن يُقبِّلني، ترصد العدسة حلمي فقط بحركات «بان رايت»، و«بان لفت»، لم تكن لها نظرة بانورامية، أو

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

دائرية. ظهر زوجي، فكأني استنجدتُ به، كوَّر قبضته، فتوقَّعته سيُسدِّدها لوجه هذا الغريب، لكنه لم يفعل، نظر له الرجل نظرة غريبة، نظرة تحدٍّ، مُقايضة، مساومة، فقبض زوجي يده وضربها في كفِّه الثانية.. نظرت له وخرجت مسرعة من المكان، لم يغضبني أنه لم يضربه، أغضبني التواطؤ الذي لم أفهم سرَّه، جريت غاضبة، وأنا أتوقع أن يلحق بي زوجي، وأن ينتهي هذا الحلم، لكن أحدًا لم يتبعني، وشوارع القرية كانت طينية، وبها حفر طولى لإدخال الصرف الصحي، وأنا أرتدي فستانًا أحمرَ بدوائر سوداء، وأرى قدميَّ وهما تجريان، تتعثَّران وسط أكوام التراب والطين، ويداي تستندان على الجدران خوفاً من الانزلاق.

خرجت للطريق الرئيسي؛ طريق به سيارات تسير في اتجاه واحد لم أعرف في أي اتجاه تسير، هل للقاهرة، أم للمنصورة؟ ألتفتُ خلفي.. لم يكن هناك أحد، لم يلحقني زوجي، تزايد غضبي، أوقفت أحد المارَّة، سألته عن هذه السيارات، هل تذهب للقاهرة؟ هزَّ رأسه بأنه لا يعرف، سألت صاحب محل عصير «فواكه الجنة» وصاحب مطعم «الصبر»، لكن يبدو وكأنهما لا يعرفان أين يمضي الأسفلت الذي يخترق بلدتهما.

أخذت أسير، تُحاذيني محلات وشوارع تتعامد على الطريق السريع.. الشوارع الجانبية متشابهة مع الشارع الذي خرجت منه، حاولت أن أتذكَّر أي علامة تدلُّني على اتجاه السيارات التي تمرق من جواري، دون أن يلتقط أحد حيرتي وغُربتي في حلم لا يُريد أن ينتهي.

ظهر مبنى حكومي ضخم، اقتربت منه، إنها محطة مترو، تشبه محطة مترو

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

شبرا، لكنها مدهونة باللون الأصفر، حاولت أن أتذكَّر مرَّات سفري السابقة للمنصورة، هل كان شريط القطار عن يميني أم عن يساري، لكنني فشلت.. صعدت درجات المحطة التي كانت تتفرَّع إلى درجات أضيق منفصلة تؤدي إلى اتجاهات مختلفة، وعندما وصلت لأعلى المحطة استطعت أن أرى الناحية الأخرى من المحطة، هي نسخة متطابقة للناحية التي جئت منها دون اختلاف، والسيارات تجري بسرعة شديدة دون توقُّف أمام مطب.

وجدت في وجهي فتاتين ترتديان ملابس من التي يرتديها الشباب الذين يؤدون الخدمة العسكرية، استوقفتهما، سألتهما: «لو سمحتِ، إنتم لمَّا بتركبوا للقاهرة، لمصر.. مصر، بتركبوا منين؟»، أجابت إحداهما: «إحنا عُمرنا ما ركبنا لمصر».

- لمَّا بتروحوا الوحدة بتاعتكم، الخدمة، الجيش بتروحوا ازّاي؟

أطلقت فتاة منهما ضحكة طويلة، ونهضت، فظهرت لي ملابسها التحتية الرثَّة..

- أنا لابسه ده -وأشارت للزيِّ العسكري- علشان أدَّفا. وعادت لجلستها. لم يكن لديَّ وقت أو طاقة للتفكير، كيف حصلتا على هذا الجاكت الميري.. حتى إنني أسندت ظهري للسور المجاور لهما، وكدت أجلس بجوارهما، ويبدو أنهما لم ترغبا أن يزاحمهما أحد في جلستهما، فأشارت إحداهما لباب جانبي أعلى البسطة التالية، وقالت لي بنفاد صبر: «شوفي، هنا فيه ناس بتدخل من هنا».

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

صعدت درجات السلالم الرخامية الزَّلِقة.. واقتربت من الباب الموارب، كان مكتوبًا عليه «للعاملين فقط»، وقفت على عتبة الباب، في الداخل عتمة شديدة، أخذت بُرهة حتى أتبيَّن إلى أين يؤدي.. بدا المكان مثل قاعة عروض القبة السماوية في مكتبة الإسكندرية، تملَّكني إحساس بضرورة ارتداء نظَّارة الأبعاد الرباعية، رأيتهم، يتحركون في طابور، بين كل واحد منهم مسافة قصيرة، يرتدون ملابس تشبه ملابس الرهبان الفرنسيسكان، وظهورهم محنيَّة، يسيرون في طريق نصف دائري في صمت ومهابة، وعلامات لشواهد قبور على يسارهم، ويبدو أن الطريق نصف الدائري الذي يسيرون فيه كانت نهايته تخلو من تأثير الجاذبية الأرضية، إذ كانوا يسقطون من فوق سطح الأرض ويتوهون في فضاء الكون، هذا الجزء للأمانة في رواية الأحلام لم أشاهده، لكن شعرت بأنه ما يحدث، لم يكن باديًا أن هذا يمكن أن يكون طريقًا للقاهرة أو لأي مدينة أخرى؛ لذا ابتعدت عن الظلمة والصمت، وعُدتُ أبحث عن الاتجاه المؤدِّي للقاهرة.

Telegram:@mbooks90

تذكَّرت الموبايل، لم أسمع رنَّته طوال الحلم، أخرجته، ووجدت أني جعلته على الوضع صامت، ووجدت رسائل كثيرة من زوجي ومكالمات، عشر رسائل. فتحت آخر واحدة: «إنتِ أنهيتِ الموضوع بطريقتكِ القاطعة، مجرد غلطة، أنتِ دائمًا تقذينني، الحكاية بدأت تهريج، من خط فودافون».

ما معنى هذا؟ ضغطتُ على الرسالة الأولى، أفزعني صوت سايس: «مصر، مصر، نفر لمصر».

استيقظتُ من النوم وأنا لا أعرف محتوى الرسائل السابقة، أو حقيقة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الحكاية، لكن الشيء الوحيد اليقيني، أنني كنتُ النَّفر الأخير الذي أكمل «البيجو» الذاهب لمصر.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الدرويشة والمُريد

وقفت تُصلِّي العصر.. كانت الشمس قد انكسرت حدَّة أشعَّتها.. هذا هو الوقت الذي تحب أن تؤدي فيه صلاتها، عندما يفرد الظل روحه على الأشياء، خاصة جدران منزلها.. طالما تتبَّعت الظل فى كل خطواتها.. هل كان ظلًّا واحدًا؟ أم أنها ظلال كل الذين مرُّوا بحياتها؟

الظلال كلها مُراوغة.. تُضخِّم وتُكبِّر، تُحقِّر وتُصغِّر من تشاء، كيفما تشاء. تتخذ لها جلسة دائمة في ركن من بيتها، بجوار السلم الصاعد للدور العلوي، كأنها بهذه القعدة تستطيع أن تراقب حركة العالم؛ الداخلين من الباب الكبير، المارِّين بالطرقة المؤدية للغرف الداخلية، والصاعدين أو الهابطين من الدور العلوي، الأهم أن تجلس تحت فتحة الشمس بعد صلاة الضحى، تتسلل الأشعَّة الدافئة إلى عظامها تُخرج برد وشجن ووهن السنوات الطويلة.

تقرأ الفاتحة.. الحمد لله رب العالمين.. تعرف أنه ما من شيء يمكنها أن تلقى به ربها غير حمده.. تؤنِّب نفسها كثيرًا إن غفلت عن الحمد. وحدها تعرف ماذا أعطاها ربها، كل الذي تمنت ولم ينطق به لسانها، لكنه وحده اطَّلع على ما في نفسها، وقال: اذهبي مستجابة الخاطر.. تدمع عيناها وتلهث بالحمد أكثر من مرة.. لا تحب أن تُصلِّي في حضور أحد.. يفسدون عليها صلاتها فيُعقب ابنها: «يا ماما لا يصح أن تضعي يديك على قلبكِ وأنتِ تصلين». تبتسم في صمت، وأحيانًا تهز رأسها وتقول: «حاضر». وعندما ينزاح شالها، ويتراجع عن شعرها الأبيض الخفيف، تسرع ابنتها الكبيرة لتسوية

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الشال الكشمير على رأسها. وعندما تتكرر الحركة تنصحها ابنتها: «يا ماما، البسي خمارًا حتى لا ينكشف شعركِ». لا تستطيع أن تقول لها إنها لا تحب الخمار، وإنه يخنق رقبتها، وإنها تشعر بالراحة أكثر مع شالها، ولا تستطيع أن تقول لابنها إنها تضع يديها على قلبها تربت عليه وتدعوه أن يهدأ، وأن يستكين.. وإنها تشعر في صلاتها بأن قلبها سيطير، وأنه سيجذبها للأعلى، فتتشبَّث قدماها بالبساط العشبي الممتد على سجادة صلاتها التي لا تسلم من ملاحظة أن سجادات الصلاة كلها تحتوي على صورة للكعبة، فما بال سجادتها قطعة قطيفة عادية مزخرفة بالعشب والزهور، يشترون لها سجادات صلاة شرعية، بمحراب، وأعمدة، وأقواس، لكنها تفضل سجادتها، عندما تقف عليها تستحضر تصورها عن الجنة، ظلال رائقة لأشجار كثيفة متداخلة وأرض عشبية ندية مخملية كسجادة شيرازية، يغوص كفَّا قدميها فيها.. راحة تُطمئِن الروح، ونعومة تهدد القدمين المُثقلتين من الخطو في الأرض المُقفرة. كل ما يحيط بها يفسد عليها رُؤاها، أحلامها.. ما يجعلها تسأل الشيخ «حسين» عندما يأتي لتناول القهوة معها، كما ظل يفعل طوال أربعين عامًا. يضحك الرجل الذي يُزاملها في العُمر: «يا حاجة! هو الذي يقبل، وهو الذي يرد». وعندما يستمع أولادها وأحفادها إلى رأي الشيخ حسين.. يضحكون: «طبعًا، وهو الشيخ حسين هيقول إيه غير ما يُريح الحاجَّة».

فليضحكوا.. صحيح إن البعض يتغامز بحب الشيخ الصامت لها، لكن الشيخ الحافظ لكتاب الله لن يُغضب ربه من أجل «الحاجَّة»، ثم إنه إذا كان يحبها فعلًا.. فسيكون حريصًا على علاقتها بربها، ولن يُرضيه أن تُقصِّر وتدخل النار.. تطمئن «الحاجَّة» نفسها، وتكمل صلاتها. تنهض من الركوع، تربت

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

على أعلى صدرها الأيسر، وهي تردد داخلها: «ممتنة يا رب»، ترفع يدها وتضعها على رأسها.. وفجأة تشعر بيد تجذب شالها وتأخذه بعيدًا.. ترتبك.. تحتار: «هل تكمل الصلاة؟ أم تُسلِّم وتسترد شالها؟!».

تواصل «السيدة» صلاتها، تُتم الركوع والسجود، لكن روحها غائبة، تحاول، تُغمض عينيها.. تركز في حروف الكلمات، لكن خيالًا تعرفه وتفر منه تشكَّل من الدوائر الحمراء والبرتقالية والسوداء التي تكوَّنت في عقلها، وهي مغمضة العينين، ليس هناك أصعب من أن تفقد ولدك.. تشعر بأنك كنت المقصود، وأن الموت أخطأك، فلا تكفي قرابين العالم، ولا كل الطلعات الموسمية في المولد النبوي، أول رجب، منتصف شعبان؛ لترضية روح مُعلَّقة بالأرض.

تستسلم لتمزق خلاياها وشتات روحها، تلقت الرسالة، سلَّمت «السلام عليكم ورحمة الله وبركاته»، ومسرعةً التفتت تبحث عن الولد الصغير الذي خطف شالها، لا يجرؤ على هذه الفعلة سواه.. على الرغم من أن البيت مليء بالأحفاد، لكنه الوحيد المُحاط بروح أمه، تحاول كثيرًا أن تكون حازمة معه، لكن الجدَّات غير الأمهات.

بعد وفاة ابنتها، انضم الصغير إليها، أعطاها من حيويته، ومن عمره، فتحسَّنت صحتها تدريجيًّا، واختفت الشكوى من خشونة الركبة والتهاب العينين.. لم يكن في الأمر معجزة، كل مولود يأتي بقُدرته، أصبح الطفل شغلها الشاغل فلا تترك شؤونه لخالته، بل تقوم بكل ما يخصُّه.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

هي واثقة بأنه من سحب شالها، تلمحه يجري بالشال خارج البيت، تسرع خلفه، تجد نفسها عند عتبة البيت.. اجتياز العتبة ليس شيئًا سهلًا، آخر مرة خرجت فيه كانت خلف جثمان ابنتها.

لا تدري كيف عادت وتركتها هناك.. لم تتركها، ظل جسدها ملتصقًا بالحجارة البيضاء، وساقاها أثقل من الموت. حتى شعرت بيد تربت على كتفها:

- يلَّا يامَّه، الولد جعان.

لقد نسيت الصغير، وها هي تذكرها به، يا كبدي. هذا الولد هو عوضها عن ابنتها وصلته بها، عندما ترى طيفها، أو تشعر بوجودها في المكان تُدرك أن خطبًا ما يلم بالطفل، وأنها حضرت كي تنبهها، تفرح بوجودها، بقربها، وإحساسها أن ابنتها تتواصل معها، لكن ذلك أيضًا يخيفها من المسؤولية ومن التقصير في حق حفيدها. وهي امرأة نسيت الأمومة وتكاليفها منذ زمن، وها هي تعود لها مع طفل قست عليه الحياة مبكرًا وحرمته من السند الأهم: أمه.

تشعر بأنها مهما حنت عليه لن تستطيع أن تعوضه عن أمه.. لكنها تحاول وتحاول.

تقف على العتبة تنادي على الصغير الذي لوَّح لها بشالها:

- تعالي يا تيتة!

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تخرج.. الشارع خالٍ، تدوس على التراب، التراب ناعم، رطب، والشمس غائمة. تلحق بالطفل الذي يُلوِّح بشالها، لم يعد الشارع ممتدًّا ومستقيمًا كما تعودَّت، تغيَّرت معالمه.. هل يمكن أن يحدث هذا التغير خلال شهر؟

الطريق صاعد، والطفل يصعد أمامها بخفَّة.. إنه يطير.. لم تنتبه لصعود الطريق، وأنها تبتعد كثيرًا عن منزلها، إلا عندما التفتت للخلف، ورأت سطح المنزل المجاور لبيتها، لم يكن سطح بيتها ظاهرًا، لكنها كانت تشعر أنها ستراه بمجرد أن تواصل مشيها، لم تدرِ إلى أين يصل هذا الطريق والصغير مستمتع بلهوه، لكن الغريب أنه ليس مهتمًّا بها، كأنه يسير وحده في أمان تام، لم يعد الأمر كما كان باديًا لها أنه يُلوِّح لها بالشال كي تتبعه، تظل المسافة بينهما ثابتة مهما تلكَّع الطفل، ومهما اجتهدت في زيادة سرعتها، وشحذ عزمها وهمَّتها. واستمر الطريق في الصعود حتى لكأنه انفصل تمامًا على الأرض.

لم يعُد صعود الطريق مُرهقًا، صارت خفيفة، وبدأت تشعر بنسمات من الهواء تُداعب جلدها، أخذ الطريق يتفرع.. تمشي باستقامة فهي تخشى أن تضل، منذ كانت صغيرة وهي حريصة على تتبع العلامات، لديها القدرة على أن تحفظ الطريق فلا تتوه، في أول يوم لذهابها إلى «الكُتَّاب» اصطحبها أبوها، وأوصاها أن تنتظره كي يعود بها، لكنه فوجئ بها أمام البيت، لم يعرف الأب هل يثني على شجاعتها، أم يعاقبها لعدم إطاعة أوامره، في قرارة نفسه كان راضيًا، بل فرحًا، كونها ابنة وحيدة بلا أخ كان يحمله همًّا،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لكن تصرفاتها وسلوكها كانا كثيرًا ما يُنسيانه هذا الهَمَّ.. تعوّدت أن تُبادر وتمسك زمام الأمور في حياتها. لكنها الآن مدفوعة برغبة وفضول قديم لمعرفة إلى أين سيقودها هذا الطريق وأين يختفي حفيدها، ترى شالها معلقًا على إحدى الأشجار، تسير إليها لا بد أن الطفل يجلس تحتها، لكن الضباب، أو ربما السحب -التي صار الطريق في صعوده المستمر يخترقها- تخفي كثيرًا من معالم الأشياء. تصل للشجرة، شالها على فرع بعيد، لا تستطيع أن تطاله، تستند لجذع الشجرة فتتحرك الشجرة بمجرد لمسها لجذعها، تنفتح الشجرة عن مساحة شاسعة من الخُضرة تُنيرها شمس حانية، المكان مليء بالنساء، ولكنهن منقسمات إلى نوعين؛ شابّات يرتدين بلاطيَّ بيضاء، ويضعن إيشاربات صغيرة على رؤوسهن، ويقمن برعاية سيدات يشبهنها في هيئتها، وفي سنِّها، تقترب شابة تشبه ابنتها الراحلة تصطحبها إلى مقعد خالٍ أمامه مرآة كبيرة، تُجلسها الشابة وتعدل من وضع الكرسي حتى أصبح كسرير.

تربت على يدها، وتهمس لها:

- سترتاحين الآن.

تطلب منها أن تفتح أزرار جلبابها، تأكدت أنها طبيبة عندما وضعت السمّاعة على قلبها، وبدأت في الاستماع لدقّاته، أعطتها كوب عصير، لم تكن عطشى، لكن العصير رواها وشعرت بنوع من الهناءة، فتجددت رغبتها الدائمة في الحمد والامتنان لمن سقاها، تتنهَّد الشيخة، وينتابها تحنان ورغبة في البكاء، كأن دهرًا مضى ولم يُتح فيه أن تجلس مُسترخيةً.. دون أن تحمل همًّا أو أن تفكر في تفاصيل حياتها.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تمد الشابة يدها إلى القفص الصدري، وفي حركة مُباغتة تخترقه، تخرج القلب، ترفعه أمام الوجه المستكين بخدر من الحنين والدهشة.

تبتسم بأسى:

- قلبك مُثقل بأشخاص وتفاصيل كثيرة، يجب أن نعيد ترتيب ما فيه، وأن نتخلص من كل ما يُثقلك. عليك فقط أن ترشديني للمهم بالنسبة لك، والباقي سنتخلص منه.

تبدأ الطبيبة في إخراج ما بداخل قلبها وترصُّه على المنضدة المجاورة لها، وبعد أن انتهت قالت لها: «اختاري».

الآن حياتها كلها على المنضدة أمامها، كل الأشخاص الذين مروا بحياتها.. من تختار؟

تشعر الطبيبة بحيرتها.

- سأُساعدكِ، ابدئي بالتخلص ممن لا تتذكرينهم، لا تملئي قلبك بمن لم يؤثر فيكِ، أو من انتهى تأثيره.. انظري إليهم جيدًا، سيكون ذهنك الدليل للبقاء، ومن لا يتعرَّف عليه سنتخلَّص منه فورًا.

نصيحة جيدة، تنظر للمنضدة، من تتذكره يُعاد لقلبها، ومن لا تتذكره يسقط تلقائيًّا من فوق المنضدة، كأن ذهنها سهم يصيب المرصوصين في صمت.

أمسكت يد الطبيبة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- من فضلك، هناك من أتذكَّرهم، لكن ذكرياتهم معي حزينة ومضطربة.

- لا تقلقي، سنعيد المحاولة أكثر من مرة، لن نُبقي غير ما تريدين.

تنظر إلى السلة المملوءة بأجزاء من حياتها، ماذا لو أن جزءًا من هذه الأجزاء يحوي ذكرى عزيزة؟ وها هي تتخلص منها تلقائيًّا، من يضمن لها أن ذهنها صافٍ، وأن اختيارها صحيح؟

تخلَّصت السيدة من كثير ممن ظنَّتهم يُثقلون قلبها، أشخاص قسوا عليها يومًا، عكَّروا صفوها، لكنها لاحظت أن حجم قلبها يقل كلما أومأت للشابة بأن تُزيح أحدهم من المنضدة وتلقيه في سلَّة المهملات، احتفظت بأحفادها وبأبنائها، وبأمها، وأبيها.

تنبهها الشابة أن قلبها لن يتَّسع لأكثر من شخص واحد، تنظر للمنضدة، المتبقي المرحوم زوجها «حسن» والشيخ «حسين»، تسأل الممرضة أن تُعيد ترتيب الأشخاص في قلبها، وأن توفر مساحة للرجلين، فهما أقرب الناس إليها.

تجيبها الشابة في حسم:

- مهمتنا أن نمحو ما يضايقك، ولكن لا نستطيع زيادة مساحة قلبك.

لماذا تأخَّرت في اختيارهما؟

تعرفهما منذ عرفت الحياة، كانا من أبناء عمومتها، لماذا كانت عيناها تمرَّان عليهما سريعًا؟ اعتقدت أن وجودهما في قلبها شيء بديهي، وليس

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

محل اختبار. ربما لا تستطيع أن تنسى أنها كانت تميل أكثر للحديث مع «حسين»، فهو طيب، ودود، متفهم.. يظهر اهتمامه بها فيحضر لها المجلات التي تحب قراءتها من المدينة، كانت -وما زالت- تستشيره وتستأمنه على أسرارها. وكانت دراسته في جامعة الأزهر تُضفي عليه هالة، لكنه لم يحدثها في شيء خاص، شيء متعلق بهما، تلاحظ تردده وحيرته والكلام المعلق في عينيه، تنتظر مبادرته.. لكنه لم يتقدم، لا تبرح روحها حالة الانتظار التي كانت عليها.

على عكس زوجها الذي كان قادرًا دائمًا على مفاجأتها، اكتفى من التعليم بأساسياته، واهتم برعاية أرض والده، وامتد نشاطه لتجارة الحبوب، لا يستقر في البلدة، دائمًا تحيطه الشائعات، تحس باضطراب، ولا تهدأ روحها عندما تراه. جريء، وغامض، لا يتوقع أحد تصرفاته، تعلَّقت روحها به، بغموضه، بما لا تعرفه عنه، تشعر بأن «حسين» كتاب مفتوح تعرف كل سطوره، لكن «حسن» كان مغامرة، وثبةً لعالم لا تعرف إلى أين سيأخذها، لم تستطع أن تحكي لأحد عن الشك والحيرة اللذين سببهما لها زوجها، تعلَّقت به، أخذها لعالم من القلق والخوف في أثناء سفره، الأقاويل عن زيجاته المتكررة في أكثر من بلد، تجارته التي تنمو، والأموال التي تزداد في يده، وبُعاده فترات طويلة، تجعل تلك الشائعات تعصر قلبها، لكن عودته بصخبه، والحياة التي يبثُّها في روحها، كانت قادرة على إزالة كل الهموم.

عاشت حياتها معه على طرفي نقيض ما بين نعمة ودفء حضوره وقلق وشك غيابه. لسنوات ليست قليلة بعد وفاته، ظلت تنتظر امرأة تدق بابها

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وتطالب بحقها وحق أولادها في ميراثه. ربما تكون هذه الأيام هي أهدأ أيامها بعد أن عرفت له مُستقرًّا.

لم تستطع حتى في أشد أوقاتها ضيقًا أن تلوم نفسها، تعلم في يقينها أنه لم يكن أمامها خيار آخر، حتى «حسين» لم يظهر أي حزن أو غضب أو كسر خاطر لخطبتها لابن عمِّه، وظلت صداقته لـ«حسن» مستمرة بعد زواجهما، يقوم على قضاء ما يحتاجون إليه في غيابه، حتى بعد وفاته ظل محافظًا على زيارته اليومية في الصباح كي يطمئن على أحوالها.

هل هي حقًّا أمام اختبار؟ أم أن الاختيار محسوم؟

هل تمنحها نفسها تجربة جديدة؟ هل تقدم هي وتبادر بحركة فيما بدا لها أنها لعبة شطرنج؟

عندما يتفرع الطريق، ويكون عليها أن تختار.. عادة ما كانت تختار غير المتوقع. تنظر للرجلين المترقبين أمامها على المنضدة. تمد يدها وتشير للشابة بأنها تختار الرجل الذي منحها حياة حقيقية.

تبتسم الشابة للسيدة، وتمد لها يدها:

- يمكنكِ الآن أن تخرجي وتتجولي بحرية في المكان كما تريدين.

- لقد اقترب الغروب.. أين سأنام؟

- في أي مكان، بمجرد أن تشعري بالرغبة في النوم أو الراحة ستجدين نفسك في غرفة نومكِ.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بالفعل، نظرت السيدة حولها، اختفت كل الأجهزة الطبية، ورأت نفسها في غرفة صغيرة مبنية بالطوب اللَّبِن، أرضيتها مفروشة بالحصير، وفي ركن منها مصطبة، عليها كليم مشغول من بقايا الأقمشة، وفوقها في أعلى الجدار الملاصق لها كُوَّة تدخل منها حزمة من أشعَّة الشمس، هذه حجرة نومها في بيت أبيها، وقفت عند مسقط الأشعَّة كما كانت تفعل وهي صغيرة، وما إن خاطرت ببالها أمنيتها حتى وجدت يديها تمتدان وتمسكان بالخيوط الذهبية وتتسلقها كما لو كانت حبلًا ممتدًّا إلى حيث لا تعلم، أجهدها الصعود، فجلست على أول سحابة قابلتها، بعد أن اعتادت السحب المتناثرة من حولها أخذت تقفز بين السحب وتُكوِّم بعضًا منها ككُرات القطن، وتنثرها في الفضاء، فجأة شعرت ببرودة شديدة، وأنها تفقد اتزانها، ووجدت نفسها تهبط مع تفكك السحابة وتحولها إلى قطرات مطر، أخذت طريقها إلى مساحة شاسعة من الخُضرة، خمَّنت أنها غابة.. لم تكن قد رأت غابة من قبل، لكنها تتابع بشغف على قناة «ناشيونال جيوجرافيك» برنامج «عالم الغابات».. تتصاعد من الخُضرة الداكنة صوت ألحان، وكلما اقتربت صار صوت الموسيقى أوضح. موسيقى لم تعرف مصدرها، تبعث فيها الرهبة والحنين. استقرَّت مع قطرة ماء على ورقة شجرة، لم ترغب في أن تتجول في الغابة، لم تتخلَّ عن حذر قديم لما يحدث للفتيات من كوارث في الغابة.. ورأت أعواد الخيزران الطويلة تعزف ألحانها بنفخ الريح.. حركة الخيزران الناعمة مع الموسيقى كأنما نوَّمتها مغناطيسيًّا، ظهر وجه حفيدها من بين أغصان الخيزران.. لماذا غفلت عنه؟ نادت عليه، لم يستجب لها، نزلت برفق من الورقة التي مالت حتى وصلت إلى الأرض، تبعته، باعدت أغصان

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الخيزران المتشابكة، كأعواد الذرة في غيطهم القديم، لكن هذه الغابة كانت غائمة تحجب كثافة أشجارها أشعَّة الشمس على عكس غيطان الذرة التي تلهبها الشمس، قادها الممر إلى بحيرة، على شاطئها فوجئت بزوجها، وابنتها، والطفل، فرحت لرؤيتهم، لكنها تساءلت ما الذي أتى بحفيدها إلى جدّهِ وأمه، لا تتذكر أنها غفلت عنه، كيف باغتها ومرق إلى الظل، لم يكن في وجه الطفل ما يُنبئ بألم، لكنها ظلت مندهشة، أقبل إليها، قبَّلها، وأجلسها بجوار أمه.

على الرغم من الاجتماع العائلي، فإنها شعرت بأن كل واحد منهم معزول داخل كرة شفافة، كل واحدٍ يحمل قلبه في يده، كان قلب ابنتها لا يحمل غير صورة حفيدها الذي قفز لكفِّ أمه، وأخذ مكانه.

وعندما نظرت لقلب زوجها كان خاليًا تمامًا، وفي فقاعته كان زوجها قادرًا على الطفو على سطح البحيرة والغوص في أعماقها، دون أن ينتبه لوجودها.

لم تجد في نفسها ضيقًا أو ضجرًا، كأنها أنهت مهمة، رددت لنفسها: فقط كنت أريد. أن أحصل على شالي وأطمئن على الطفل.

ابتسمت الابنة ابتسامة شاحبة، وظلت مشغولة بتنظيف ملابس صغيرها.

فكَّرت السيدة في العودة، ووجدت نفسها على عتبة البيت، وجماعة من الأقارب والجيران، واقفين حولها، أمسك الشيخ «حسين» يدها بطرف عمامته، وقال: «وحِّدي الله يا حاجَّة، أمانة وراجت لصاحبها».

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

خرجوا يحملون جسدًا صغيرًا، تحرَّكوا في الطريق الصاعد، لم تحرك قدميها، تتبَّعتهم بعينيها، وعادت لصلاة العصر.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أنا جميلة لأني أشبه أمي

تنتمي أمي إلى جبل الأوليمب، حيث الأرباب القادرون، والرَّبات الراسخات، كُلِّيَّة القدرة، نافذة البصيرة، تستطيع -كما كانت تقول حين تحضُّنا على الاعتراف بذنوبنا الصغيرة- أن ترى من خلف ظهرها، ربما تكون هي من غرست في وعيي مفهومي الله والضمير.

أمي امرأة بلا أُمنيات أو أحلام؛ فكل ما أرادته كان لها، ولم يلمح أحد منَّا -نحن أبناءها الخمسة- يومًا على طرف رموشها حنينًا أو تحنانًا لشيء، وما زلنا غير قادرين على النفاذ لعالمها السري، فهي امرأة لا تعرف الشكوى، تراها نقصًا، وهي لا تقبل إلا الكمال. تعلمنا ونحن صغار أنه إذا مر بسمائها ما يعكر صفوها أن ننسحب من المشهد ونتركها تتعافى ذاتيًّا، أحيانًا يُهيَّأ لي أن القدر قد خبر شدة مِرَاسِها، فتواطأ معها بإعجاب مضمر.

ما من مرة احتجت إليها إلا وساندتني، وقفت بجواري ضد رغبة أبي عندما أخبرتها بحبي لزميل لي لا يملك من الحياة غير رجاحة عقله، توقعت أن ترفض، أن تنهرني، لكنها كانت قادرة على إدهاشي بحميميتها ومباركتها التي منحتني بيتًا وحياةً، وعندما أخبرتها أن البعض من الزملاء يتجاهلني أو يتعامل معي بفتور ولا تلقائية، وكان تفسيري أنهم لا يحبونني، ابتسمت وهي ترفع رأسها وتنظر لأعلى، بينما يداها مشغولتان بفوطة تجفف بها طقم الملاعق، وقالت: «إنهم يخافونكِ».. انتظرت أن توضح أكثر، لكنها كانت قد فتحت الصنبور، وانهمكت في غسل الأكواب الكريستال، وكان هذا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

إذنًا لي بالانصراف، فأمي لا تمتلك ثرثرة النساء ولا قدرتهن على البوح، وكل ما يربطها بعالم الأرض أنها تتابع نشرات الأخبار، ومسلسل «حريم السلطان».

في حضرة أمي نتحدث في مسائل وشؤون عامة، لكننا لا نشخّص شيئًا، أمي ضد الشخصنة، أمي سيدة المجردات يمكن أن نتحدث عمَّا طرأ على العالم من فساد، ولكنها تطلب منَّا أن نغير الموضوع إذا ذكرنا أسماء أو وقائع.

أمي ليس لديها فضول، لا تمد عينيها لأبعد من دائرتها، لا تتعامل مع الآخرين بندية، لا توجد صديقة لأمي، ويُهيأ لي أنه لا يوجد لدى أمي سر أو همٌّ يؤرقها وتريده أن ينزاح عن صدرها فتفضفض به لأحد.

أنا ابنتها البكرية، وأقرب أبنائها شبهًا بها، لا أطمع حين أطمئن عليها إلا أن تقول لي إن الأيام قد أثرت فيها، وإنها لم تعد تستطيع الصلاة إلا وهي جالسة على الكرسي، ويكون هذا نوعًا من التباسط يدل على اعتزازها بي، ومكانتي لديها؛ لأنه لا أحد يسأل أمي عن حالها إلا وكانت إجابتها: «الحمد لله»، دون تفاصيل.

هامش في سياق المتن

كنت أُسرّح شعري أمام المرآة، وقد تجمَّع شعري في يدي اليُسرى على كتفي اليمنى، فجأةً انتبهتُ وحدَّقتُ. كان تقف في مواجهتي شابَّة، رأيتُ صورتها من قبل معلقة في بيت جدِّي ترتدي فستان ديكولتيه، وشعرها مُنسدل على كتفها اليمنى، كانت جميلةً، حتى إن صورتها بالأبيض والأسود

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

انطبعت في روحي، ومنذ رأيتني في مرآة أمي وأنا لا أتشكّك أو أشعر بالامتنان إن قال أحدهم: «أنتِ جميلة».

فعلًا «أنا جميلة» لأني أُشبه أمي.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أنا كاتبة لأني أُشبه أبي

لم يكن أبي موظفًا كبيرًا

كان أبي حطَّابًا.. قاطعَ أشجار. ولما تغير الوقت ولم يعد من الحطب غير أسماء المطاعم الشهيرة في «مدينة نصر»، وصارت الغابات تتحرك بعيدًا عن الصخب، وكل شجرة تتحسَّس مكان رأسها وتنفض من أُذنيها السخام الذي يطارد مسامها، بقي أبي، ولتزجية وتسلية النفس، أمسى قاطعَ طريق، يوقف العابرين ليسألهم عن الأنفاق التي خلخلت خلايا النحل، والكباري التي غضَّنت مداخل المدن.

لم يكن أبي موظفًا كبيرًا

كان راعيًا للأغنام اكتشف يومًا أن عصاه تلتصق بصخرة، لم تكن الصخرة حجرًا، كانت سرًّا، قلبًا، ظل أبي مجذوبًا لمَداراته، وعندما ابتعدت غنماته لم يلحقها، وتركها تذهب وحيدة لشاطئ البحر. لم يكن بحرًا هادئًا متوسطًا، أو أحمرَ، كان مُحيطًا هائجًا، تدافعت الغنمات لقلبه، لم يشعر أبي بالفقد. ظل جالسًا على صخرته يُتابع المد والجزر.

لم يكن أبي موظفًا كبيرًا

كان أبي عاملًا في قصر الملك.. في بعض الأوقات، كان بوَّابًا للقصر يسمح ويمنع.. ودائمًا ما يحرك عينيه: فعينٌ للداخل، حيث يسمع ويلمح ماذا يحدث حول الملك، وعينٌ للخارج تدور بين الفلاحين والتجار والنساء

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

العابرات في الأسواق.. هذه الرؤية الثنائية مكّنت لأبي أن يدل الناس الواقفين بباب الملك على الأوقات المناسبة لطلب الصفح، أو تخفيف عقوبة، أو طلب عطية من الملك، لكن الذي لم يُلاحظه أبي قط أن أسراب النمل تفرّ من القصر.

ذات مرة أصبح رسّامًا في بلاط الملك.. رسم يومًا طفلين فقيرين يأكلان العنب والبطيخ، وكانت ملابسهما ممزقة، وأظافرهما طويلة وقذرة، وأرجلهما متسخة.. غضب الملك.. كيف تقع عيناه على هذه القذارة، خرج أبي مطرودًا من القصر.. وتعلّم الدرس جيدًا، فكان يستهلك من المنظفات لغسل وجوه وأجسام الرعية أكثر مما يستهلك من ألوان لرسمهم.

مضى بعض الوقت، وعادت أسراب النمل لبلاط الملك، وعاد أبي للقصر، ارتدى أثوابًا عديدة، أحيانًا يكون شاعر البلاط، وأحيانًا لقمان الحكيم، وفي كل الأحيان كان عليه أن يقول كل ما يريد بالتورية، بالتحلية، بالمُباغتة.. يستطيع أبي أن يخدع الملك الذي لا يعرف غير أن يأمر السياف مسرور.. مات الملك، ومن بعده جاء ألف ملك، لكن أبي ظل قابضًا على باب القصر الكبير.

لم يكن أبي موظفًا كبيرًا

ذات مساء أتاحت له ضربة قدر أن يدخل الجنة، طرق بابًا، وانفتح الباب على البراح، حيث النور، والظل، دون وطأة الشمس والحر والجحيم، أحاط النور أبي، فغشيت عيناه، ولم يستقر، ظل يتخبط، ويبحث عن مخرج،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كيف لم يتسرَّب ولو قليل من النور الذي يغمره إلى داخله، إلى روحه؟! ما الذي حجب أبي وجعله دائم التلفُّت للأرض.. أي جزء من روحه يُشاقق روحه؟!

أنا كاتبة لأني أُشبه أبي.. أورثني أبي الحيرة والتيه، وحين أقلب في أوراقه، في أوراده، أُردِّد بيني وبين نفسي: «يا لحظِّك.. يا بختك.. كيف لا يطيب لكَ الظل». يصمت أبي، لا يمنحني إدراكًا أو تفهُّمًا. فلم يكن هناك بالكلية، جزء من روحه كان يُشاقق روحه، فظل طوال الوقت يلتفت ويتألَّم ويَحِنُّ.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أمي وأبي

ذات زمن بعيد لم يكن هناك سوى أمي وأبي، كان أبي كل العالم، وكانت أمي تمثل زوجة أعرابي حطَّاب: «إن زوجي إذا خرج ليجمع الحطب من الجبل فيبيعه ويشتري ما نحتاج إليه أحسُّ بالعناء الذي لقيه في سبيل رزقنا.. وأحسُّ بحرارة عطشه في الجبل تكاد تحرق حلقي.. فأُعِدُّ له الماء البارد حتى إذا ما قدم وجده.. وقد نسقت متاعي وأعددت له طعامه.. ثم وقفتُ أنتظره في أحسن ثيابي.. فإذا ما دخل من الباب استقبلته كما تستقبل العروس عريسها الذي عشقته، مُسلِّمةً نفسي إليه.. فإن أراد الراحة أعنته عليها.. وإن أرادني كنت بين يديه كالطفلة الصغيرة التي يتلهَّى بها أبوها».

ولسبب قدري بحت تمرَّد أبي وأظهر لأمي بعضًا من قُبح العالم، فرفضته أمي ولفظته من حضنها، ندم أبي، وقف على الباب كثيرًا، طلب الصفح، استغفر، أخذ يطلب وساطتنا، كنا نتعاطف معه، لكننا كنا نعرف موقعنا جيدًا، لا شفاعة ولا شفيع لدى أمي، نحن ملائكة نُسبِّح بحمدها، لكننا لا نستطيع أن نتجاوز، أو أن نناقش قرارًا اتخذته، ولم يكن لدى أي منا استعداد أن يتعرض لغضبها. وغضب أمي -مثلها- صامت وعميق، تستطيع أن تميزه من نظرة عينيها التي لا تعرف الانكسار، عندما تسري في حدقتيها خطوط حمراء على الخلفية الخضراء، عينا أمي خليط من العسلي والأخضر تغلب الخضرة في رضاها وسكونها، وتزداد الصفرة المصحوبة بشعيرات حمراء في حال غضبها، نحن ملائكتها وقططها الصغار، نعرف حدودنا جيدًا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

معها، وهي السيدة التي علَّمتنا كيف نضع ونخطُّ حدودنا مع العالم.

تُحرجنا صلاة أبي وطلبه العفو، ورفض أمي للمغفرة، يظهر عجزنا وهشاشتنا، لم يكن لدينا استعداد لاختبار مكانتنا لديها؛ لأننا كنا نعرف النتيجة، انتقل أبي للعيش وحيدًا في بيتٍ ثانٍ، كنا نحوم حول سيرته وأحواله، لكن ملامح أمي، كانت مرآة مُعتمة مُظلمة لا يظهر عليها أي رد فعل. كأننا نتحدث عن شخص غريب، فنصمت ولا نفكر في تكرار المحاولة.

يسيح أبي في الأرض دون أن نعرف عنه شيئًا، يغيب بالشهر والثلاثة، دون أن يحمل وسيلة اتصال، دون أن نعرف أين هو، ونظل مُعلَّقي الفكر به. فإذا ما اتصل بي وأخبرني أنه سيأتي لزيارتي أو زيارة أحد إخوتي فرحتُ. وتكون منَّةً من الله لو أن صوته كان رائقًا.

وجد أبي الجنة، لكنه كان دائم التلفُّت للأرض، فظل يدور في فلك أمي المُتباعد حتى أصابته جلطات صغيرة في المخ، جعلته ينسى كثيرًا من الأشخاص والأحداث، فنُعيد له الحكايات القديمة دون أن نقترب من جبل الأوليمب. وهو كف عن السؤال.

هل نسيها حقًّا؟ أم أنه يتواطأ معنا على النسيان؟ لا أعرف، وربما هو نفسه لم يعد يعرف.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تمساحٌ فُسْتقيٌّ يحتلُّ مطبخي

في مطبخي يرقد تمساح يشغل جسده الفستقي كل الأرضية الخشبية، لا أعرف من أي الخزائن يأتي؟ لكنني أجده في كل مرة أنتهي فيها من غسل الأطباق وتنظيم الرخامة الخضراء. وعندما أُطفئ أنوار المطبخ، وألتفت كي أتمم على عالمي، أجده ممددًا، وعيناه مختنقتان بدموع سيئة السُّمعة.. أحني ظهري، وأربت على حراشفه، فتختفي الدموع، ويحل محلها نجوم وبريق.

أنا وتمساحي لا نتحدث كثيرًا، فقط أُزيح كل ليلة الكرسيَّ الهزاز وأجلس في الطرقة أمام فتحة المطبخ وأمسك كتابًا أقرأ فيه.. يتابع التمساح ما أقرأ في صمت.. وفي أحيان يقترب من قدميَّ وينام عليهما، وعلى الرغم من ثقل رأسه على عظامي الهشَّة، فأنا لا أتبرَّم، فمن يرفض معجزةً؟ وأحيانًا لا يعجبه الكتاب الذي أقرأ، فيختفي فجأةً، إلى أين يذهب؟ لا أدري، ولا أريد أن أعرف، غير أن الحقيقة أنه لم يصدف أبدًا أن فتحت خزانة ووجدت فيها تمساحًا ينتظرني.

لا أخبر أحدًا عن تمساحي ولا عن حراشفه التي أدلف لكهوفها وتقودني ممراتها السرية في كل مرة إلى حيث لا أخطط: منبع نهر في قلب غابة... سفح جبل على حافة صحراء.

أيها التمساح، لديَّ سؤال مُراوغ: لماذا تترك نهرك وترقد في مطبخي؟ والسؤال المباشر متى ستفتح فمك وتحتويني فيه؟ نعم، تستطيع أن تعيش عدَّة أشهر بلا طعام.. ونعم، أنت حتى الآن مُسالم، لكني لا أستوعب جلستك

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

هذه في ظل أرفُف مطبخي، كما أنني أخاف من يديك القصيرتين، كأنهما نتيجة تجربة فاشلة، كيف اعتقد المصريون أنك إله خالق مع هذين اليدين الرخوتين؟ يقولون إنك راعي الجيش، وإنك قادر على أن تُحيي النفوس التي ماتت في الحرب، وأن تُعيد للأجسام المُنهكة صحَّتها، وللحواس المفقودة رونقها، وإن حورس تكَّر على هيئتك وجمع من الأحراش بقايا جثة أبيه أوزوريس. على الرغم من كل شيء أظنك يا صديقي حزين، لا تستطيع أن تكر مهما ادَّعيت من حكمة أن الجمال نعمة، آية. وأنت لا تمتلك أيًّا منه... تبدو كمخلوق صُنِع على عجل من النفايات. هل أنت حزين لأنك قبيح أم أنك قبيح لأنك قاتل وشرير؟

أيهما أكثر تأثيرًا، السؤال الغبي؟ أم الإجابة الغبية؟ السؤال الساذج الذي يكشف عن جهل أو استهتار، وعدم وعي؟ أم الإجابة التي تكشف عن كل ما سبق؟

بينما أُشاهد فيلم illiostionist وجدتُ التمساح محتلًّا نصف سجَّادتي الشيرازية، ومُنهمكًا في متابعة الفيلم، أحب هذا الفيلم، يظهر فيه استخدام العقل في صورة قد تبدو خرافية، لدعم ما يُريد الشخص إيهام الآخرين به، استخدام الأطياف قبل العروض السينمائية العامة، أن تنصب الفخاخ لآخرين، أن تقودهم ليروا ما تريدهم أن يروه، وليس ما هو حقيقي.

تابعتُ مشاهدة الفيلم وأنا متوجسة، أنظر بعين للفيلم، وبعيني الأخرى للوحش الراقد في سلام بمُحاذاتي تقريبًا. بعد انتهاء الفيلم لم أدرِ هل أُطفئ التلفاز أم أتركه للسيد الجالس في سلام مُقلق بالنسبة لي؟ قبل أن أُفكِّر في

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

احتمالات أي إجابة، وجدته يسحب أوراق الكوتشينة الموضوعة في علبة فضية مُطعَّمة ببلُّورات زرقاء، ويفردها على الطاولة الصغيرة.

لا تستهويني ألعاب الكوتشينة. الكومي أو الولد يقَشّ.. لماذا يقُشّ الولد؟ عندما كنت ألعب مع إخوتي -وكنت أكبرهم- كنت أجعل البنت تقُشّ، الأقوى يفرض قانونه. الشايب، أشك/ كذَّاب، البصرة.. كل ألعاب الكوتشينة تعتمد على الحظ، وعلى الرغم من تحويل «ديفيد كوبرفيلد» وغيره من السحرة الكوتشينة إلى فن فإنها ما زالت لعبة تضييع الوقت، وأنا لا وقت لديَّ. يعجبني في الكوتشينة فقط دلالتها الرمزية التي لا يعرفها كثيرون، لا شيء من فراغ.. كل شكل على أوراق الكوتشينة الـ52 يمثل أحد أعمدة الاقتصاد في أوروبا في القرون الوُسطى: الكنيسة، والجيش، والزراعة، والتجارة.

إذا حاول هذا التمساح أن يلعب معي الكوتشينة فلن يجد منِّي سوى الرفض، لا أُريد أن ألعب، لا أُريد أن أكتب، لا أُريد أن أفعل شيئًا، لعلي أُريد، ولكن لا أستطيع فأغلف عجزي بالتمرد والزهق.

على هذا التمساح أن يفهم حدود الضيافة، وما كان مقبولًا بالأمس لم يعُد مقبولًا اليوم، تصرفات الطفل التي يقوم بها التمساح ظنًّا أنه سيُضحكني لم تعُد تبعث غير الضجر.

أيها التمساح، هيئتك المُخيفة لا تتناسب مع احتياجك للعب، وأنا لن أستطيع التواصل الصحيح معك إلا اذا كشفت لي عن هويتك، وحتى

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تكُفَّ عن اللهو، سأنسحب لغرفتي، وحذارِ أن تأتي خلفي.. حذارِ أن تنصت لترنيمتي:

ماذا لو أنك جئت كي يمتد الظل على الأرض؟

كي تكون شجرة ينتسب إليها اللقطاء.

هواء يتنفسه المصدورون.

أهداب تتباهى بها العجائز.

ماذا لو أنك جئت فقط كي ترضي قاطعة طريق.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

امتحان

فوجئت برسالتها على الخاص:

«صباح الفل يا صافي، إيه القمر ده؟ فكَّرتيني بأيام زمان».

يُحلِّل عقلها أي تحية تصل إليه: صباح الخير: مُحايدة، مجرد دقة خفيفة، مهذبة على باب مُوارب.

السلام عليكم: رسمية، عتيقة، ترتدي خمارًا، أو قُفَّازًا، مغلفة برغبة في رسم صورة، وإعطاء انطباع مستقيم وحاد الزوايا في الوقت نفسه.

صباح الفل: حماسية، حيوية، بها أُلفة.

كان اسم الرَّاسلة واضحًا على البروفايل.. «ريهام محمد حسن»، لكنها لم تتذكَّر أنها تعرف هذا الاسم، وبدا أنها لم ترَه من قبل، ربما كانت قريبة لزوجها، تعوَّدت على قدرتهن على التباسُط والتواصل الحميم، فبمجرد لقاء أو سلام عابر تصبح «صافي»! اسم التدليل من زُملائها وأقاربها. زوجها يُناديها: «صفا»، وابنتها تُناديها: «صوفي»، وأختها الصغيرة تُناديها: «صفصوف».

ردَّت عليها على أمل أن تتعرَّف عليها، تتذكَّرها:

- ريهام، صباح الفل، شكرًا لذوقك، فعلًا الصورة من أيام زمان.

ردَّت:

- آه، يا ريتها ترجع، وبعدين إيه يا بنتي الرسميات دي؟ ذوق إيه؟!

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

باغتتها عبارة: يا بنتي! لا بد أنها كانت صديقة مقربة منها.

تباسطت لأقصى ما تستطيع:

- ولا رسميات ولا حاجة يا ستّي. ده بسّ جَرّ كلام.

اختفت من صفحة الدردشة.

أسلوبها المتدفق في الحوار، جعلها تتردد أن تسألها مباشرةً من هي؟ وتكشف لها عن عدم معرفتها بها، خافت أن تجرحها، هل هي زميلة أيام الابتدائية، الإعدادية، الثانوية؟ ستحاول أن تعرف.

لم ترغب أن تقطع خيوطًا ما اعتقدت أنها مصدر جديد للإلهام، لم تكن تجيد لعبة الاختباء والمناورة، ولكنها تعرف من تجارب قليلة أنها إذا دخلت السباق ستكسبه بوعيها الفطري.

اتَّصلت بشقيقتها الصُّغرى؛ فربما كانت دُفعتها، فتكون زميلة مدرسة، وليست زميلة صف دراسي.. تبادلتا حديثًا طويلًا عن رفيقاتهما. تثبَّتت من بعض المعلومات، واستبعدت معلومات أخرى.. سألتها صراحةً إذا كانت تتذكَّر «ريهام محمد حسن». نفت شقيقتها أي معرفة أو ارتباط بهذا الاسم.

Telegram:@mbooks90

كم من الأشخاص تسرَّبوا من ذاكرتها؟ كيف تستعيدهم؟ دائمًا ما كانت تعتمد على ذاكرتها البصرية، تشكُّ كثيرًا في ذاكرتها السمعية، لم تفهم أو تتفاعل وهي صغيرة إلا مع عدد محدود من أغنيات فيروز.. وكان التكرار كفيلًا بحلِّ شفرة اللهجة اللبنانية المُلغزة لها، وعندما اقتربت من الأغنيات

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الأجنبية؛ إنجليزية أو فرنسية، سلكت طريقها عبر قراءة الكلمات.

في أي مستوى من ذاكرتها تقبع «ريهام محمد حسن»؟ عليها أن تبحث عنها في الذاكرة طويلة المدى، حيث مرَّت عشرات السنين، والخبرات، والأسماء، والتراكُمات.. في العالم غير المحدود لذاكرتها، بين رُكام كل الخبرات التي اكتسبتها، المعلومات التي عرفتها، كل شيء موجود هناك في كهوف المُحيط الغامض المُظلم، في أي الكهوف تبحث؟ تترا كم طبقات تحت طبقات، كل شيء موجود، لا شيء يفنى. فقط أين مكانه؟ أين مستقَرُّه؟ فقط لو وجدت علامة، إشارة، تُحفِّز المحيط على رد وديعته.

غابت يومين من على الشات، وعادت للظهور دون مناسبة، كأنها تُكمل حديثًا قطعته للتَّوّ لترى من دقَّ جرس الباب.

- إنتِ عارفة كُنَّا ازَّاي، ولسَّه الحنين لصداقات الطفولة، أنا عن نفسي ملقتش زيّها، يا رب تكوني لقيتِ الأحسن.

ردَّت بحياد وقد أربكها عدم وجود أي صدى لديها لهذه الحميمية والحنين اللذين لا تشعر بأي منهما. حاولت أن تُجاريها، أن تقتنص أي معلومة تُفيدها:

- ريهام حبيبتي، ازَّيّك، وإيه أخبارك؟ إنتِ بتشتغلي فين دلوقتي؟

ردَّت:

- أنا شُغلي في وسط البلد.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- بتشوفي حَدّ من صُحابنا القُدام؟

- صُدفة، كل كام سنة لمَّا أقابل حَدّ في الشِّلة القديمة بعيالهم، بقى شكلهم مختلف خالص، بيصعبوا عليَّا. المسؤولية باينة عليهم قوي.

- وانتِ كيف حالك؟

لماذا تحدَّث من موقع خالي البال؟ استجمعت من ذاكرتها صديقات الابتدائية والإعدادية، سألتها:

- فاكرة، جيهان عسل، وأسماء نصار، ودعاء همام؟

- فيه أسماء كثيرة واقعة منِّي، فاكرة اسم البنت بسّ، لكن نسية اسم عائلتها.

- إيناس الأهواني، ودعاء عبد الرازق، وسميرة اللي كانت معايا في الإذاعة المدرسية؟

ردت بحنين زاعق في حروفها:

- ياه، فكَّرتيني بالذي مضى.

أعادت المحاولة:

- وانتِ بشتغلي فين دلوقتي؟

- في جريدة «المصري اليوم».

تحصر صديقاتها في مدرسة «حلوان الثانوية بنات»: سميرة حسين، ونعمة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عبد الحميد، ذهبتا لكلية الهندسة، ودعاء عبد القادر، الصيدلة.. لم تعمل بالإعلام من صديقاتها سواها.. ومن الأصل لا تتذكَّرها صديقة، أو حتى زميلة، أو معرفة تحمل اسم «ريهام محمد حسن».. تُرسل لها أسماء صديقاتها المقربات تقسمهن لرفيقات الابتدائية.. والإعدادية.. والثانوية.. علَّها تُعلِّق على اسم واحدة، فتركز جهودها للتذكر في مرحلة ما، مجرد مُثير يدفع بالذاكرة النائمة في سبات عميق من الاستغناء، وعدم الحاجة.. مَنْ هذه «الريهام» التي لا تبعث في داخلي فرحًا أو حزنًا أو أسى أو ندمًا.. وتسخر من حيلي بردود محايدة؟

لماذا لم تعتذر لها منذ البداية وتوضح لها أنها لا تذكرها وتتعلل بألزهامير، الشمَّاعة التي نستخدمها جميعًا كعادتنا في تبرير كل الأفعال وتسطيح كل المصطلحات وتفريغها من مضمونها؟ تتصفَّح صفحتها لا تجد أصدقاء مشتركين قُدامى، كلهم شخصيات تعرَّفت عليهم بعد دخولها عالم الكتابة، كيف قبلت صداقتها؟ تشعر بأن هناك كثيرين لا تعرفهم يتجوَّلون على صفحتها، تدخل صفحتهم لتجدهم أصدقاء، متى قبلتهم؟ لا تتذكر. هي ليست مُصابة بالنسيان، تختبر ذاكرتها بين الحين والآخر، عندما ينتابها إحساس بأنها لم تُكمل علبة الزبادي تُراهن بينها وبين نفسها، وفعلًا تجد المتبقي معلقتين، تقضم نصف التفاحة وتترك الباقي على المكتب، وشريحة التوست الأسمر، هذه البقايا تجدها دائمًا كما خمَّنت، «فادية» هي الخادمة الوحيدة التي لا تأكل المتبقي من غداء الأمس، وتكتفي بالبيض والجبن والعيش الفينو وكوبي الشاي، بواقي الغداء دائمًا موجودة. تؤكد تماسك

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ذاكرتها.

تبحث عن الاسم على موقع «المصري اليوم» فلا يظهر سوى متفرقات لا تُجدي في معرفتها. هي لم تقل إنها صحفية؟ ربما كانت مُصحِّحة؟ أو سكرتيرة؟ أو في قسم الإخراج الفني.

لو أنها رأت صورتها.. ستطلب منها:

- ريهام، ابعتي لي صورتك، شكلك اتغيَّر كتير؟

- النت بطيء قوي، هنزِّل ويندوز جديد، وابعتهالك.

ما هذه السخافة؟ ما هذا التلاعب؟

أكملت الفتاة:

- الصورة بشعري برْضُه، إنتِ نسيتِ شكلي، والّا إيه؟ وحشتيني قوي، ياريت نتقابل، هستأذن ماما، وأعدِّي عليكِ يوم الجمعة في بيتك.

انتظرت أن تكتب لها تسألها عن عنوان بيتها، أو تُحدِّد موعدًا للزيارة، لكنَّ شيئًا من هذا لم يحدث، وظلَّت «ريهام محمد حسن» مجرد وردة في صورة البروفايل، ومع كل بوست تنشره تجد علامة اللايك كاملة، وتعليقًا على صورة بين حين وآخر، وتوقيع «ريهام محمد حسن».

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الزمن الأسطورة والأزرق الحار

مريم..

ظِلُّكِ غيمةُ روحي.. أودُّ أن أتتبَّع خطواتك كحارس يستمد كيانه من أمنك.. ماذا لو تبادلنا أنا وساعتك الأدوار فألتف حول معصمك الصغير، وأستكين إلى نداوة جلدكِ، وأمنحك زمنكِ الذي ترغبين، فتدور عقاربي تبعًا لنبضاتك، تُسرع وتُبطئ وفق ما تحتاجين؟ هل سيصدمك أن تعرفي أنه لا يوجد زمن؟ حداثيتك والهيدفون المُلتف حول رأسك امتصَّا صدمتي حين قرأت أن الزمان نسبي، وأن الفضاء والوقت لا وجود لهما، بل إنهما يعتمدان على سرعة الحركة، بل إنكِ تشرحين لي المعنى بأريحية وثقة لم أملكهما يومًا: ماما تمر ساعة اللعب أسرع كثيرًا من ساعة الحساب. فأصدقك. ولا أزيدك بأن عقارب روحي تتشتَّت ويصيبها فتور وهمدان في الساعات الثماني التي تغيبين فيها عنِّي. ما بين توديعة «باي مام»، وترحيبة «ماما، ماما».

مريم، هل تتصوَّرين أن الخط المستقيم يظل مستقيمًا على مدى رؤيتنا فقط، لكنه في حقيقته في لحظة ما ينحني ويتحوَّل لقوس، وأن هذه الأقواس والمدارات والدورات والانحناءات هي الأبدية، ولا يوجد مستقيم أبدي؟ أي صدمة عليَّ أن أستوعبها؟ هل يتعارض هذا مع مفهوم الاستقامة؟ قل الله، ثم استقم. أم أن في هذا إشارة أو دلالة أو شهادة على محدوديتنا، وأن الاستقامة تكون في نطاقنا؟ كنت أقول لحبيبي إن الحب والتحنان لا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يكونان بين شخصين يقفان باستقامة.

لا بد من إزاحةٍ ما، أن تكون وضعية الجسم غير مُتعامدة على الأرض موضع الارتكاز.. لا بد من التموضع بزاوية حادة أو منفرجة كي يمكن لشخص أن يحتضن الآخر. يضحك مدرب الجيم وأنا أُؤدِّي تمارين استقامة الظهر وهو يقول لقد أخذت منكِ الأمومة الكثير.. كيف لأم أن تحتوي طفلتها، أن تحضنها، أن تركز في ملامحها دون أن يتحول أعلى ظهرها لقوس؟!

مريم، أنا أدور في دوائر، وكلما دخلت دائرة انتقلت لدائرة أكبر وأكبر، تتوالد الدوائر، المعرفة الإنسانية موجات متداخلة لا تنتهي، فقط أنا التي أجهل وجودها، وكلما دخلت دائرة اكتشفت عمق جهلي وضحالتي وفراغي. أنا خاوية يا صغيرتي بجانب مدارات المعرفة الممتدة.. ماذا عليَّ أن أفعل في خضم هذا الموج المتلاحق؟ أنا نيترون في ذرة في مادة في جُزيء.. أنا مجرد نقطة.. تقاطع خطين تدرك ضآلتها في كون مستمر في تمدده وانبساطه وأنا أحاول اللحاق بالقطار الذي يسبقني طوال الوقت، مرة بحُكم الأسبقية، ومرة بحُكم الزمن والساعات المحدودة المُتاحة لي، ومرة حسب القدرة، حيث تمرض آلتي، وتحتاج للنوم والطعام، وتقوم بأدوار متعددة كأم، وأخت، وخالة، وعمَّة.

مريم، عليَّ أن أُراجع «بروشور» السوبر ماركت، وفاتورة مُشترياتي؛ للتأكد أنني اشتريت الكورن فليكس الذي عليه خصم أم أن يدي امتدت للعلبة المجاورة.. هل هذا شيء يستحق الاهتمام؟ المسألة يا صغيرتي ليست المال، ولكني أطمئن على ذاكرتي، على قُدرتي على الخروج من تفكيري،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

في الشكل المخروطي للكون الذي يجبر كل من يقترب من جدرانه على الانحناء والدوران إلى التفكير في كيفية تقليل السُّعرات الحرارية التي تدخل جسمي والمُفاضلة بين شراء «النيترو فيت بالفراولة» أم «بسكويت الشوفان»، وأن العالم قديم وكبير، وهناك بشر كثيرون كانوا يفكرون خارج اهتماماتهم اليومية.. خارج البديهيات.. خارج الصراع والمطالبة بمزيد من الديمقراطية، ومزيد من الوعي، ومزيد من المشاركة السياسية.. بشر هناك كانوا يمتلكون رفاهية تأمُّل السماء والوقت.

مريم، هل يُولِّد الشغف بالمعرفة حزنًا؟ أم أنها الخديعة؟ والضربات القاصمة لتصوُّراتنا السابقة عن الحياة.. لافتة التحذير مُضاءة دائمًا، لكننا نتغافلها. تخدعني عيناي، واللون الأزرق الهادئ للبحر، للأُفق.. ليس لونًا باردًا كما يبدو.. اللون الأزرق القريب من الأبيض يحتاج لحرارة كبيرة كي يظهر، السلام والهدوء والسكينة كُلفتهما طاقة عالية، لا تستطيع أرصدة الكثيرين تمويلها.. فعليَّ الآن أن أكتفي بمصباح أحمر صغير، تتحمَّل كُلفة طاقته نقطة مُتناهية الصغر في مدارات الوجود.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كوشينا

عزيزتي كوشينا..

أكتب لكِ لأنني أشعر ببعض الذنب تجاهَكِ، فعلى الرغم من محاولاتك التقرب مني، وتتبّعي في كل مكان داخل البيت، فإن حاجزًا شفّافًا يحول بيني وبينك. فما زلتِ على الرغم من مرور أسبوعين من قدومك لنا قطة «مريم» لم تُصبحي بعد قطة البيت.

أطلقَت عليكِ «مريم» اسم «كوشينا» تيمُّنًا باسم «أوزوماكي كوشينا»، والدة «أوزوماكي ناروتو» بطل الأنمي الشهير ناروتو، وهو اسم مُستوحى من أسطورة الأميرة «كوشينادا» اليابانية. واخترت لكِ اسم التدليل: كوشي. وعلى الرغم من ذلك...

كوشينا..

اعذريني، أنا لا أتذكّر اسمَكِ بسهولة، اسمُكِ لا ينساب بيُسر على لساني، تتعثّر ذاكرتي في البحث عنه، ليس له طلاقة الأسماء المشهورة للقطط: لولو، كوكو، ميمي...

اسمُكِ يُذكّرني باسم «أوشيني» بطلة المسلسل الكوري الذي أُذيع منذ فترة، واستطاع كسر احتكار المسلسلات المكسيكية المُدبلجة في التسعينيات، لكنه على الرغم من مأساة بطلته «أوشيني»، وتعاطفنا معها، لم يفتح الباب لموجة من المسلسلات الكورية، وتصدّرت المسلسلات التركية الألفية

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الجديدة، اعذرينا، ما زال الشرق الأقصى بعيدًا عن ذائقتنا، ولم يُصبح بعد حلمًا للسفر أو الحياة.

اسمُكِ يبدو بالنسبة لي رُوسيًّا أكثر مما هو ياباني: يذكّرني بيابوشكا، ودادوشكا.

تعرفين أنني أدرس اللغة الروسية، ولا يعرف كثيرون السر وراء دراستي، سألتني زميلة في كورسات المركز الثقافي الروسي يمكنها أن تكون بحساب العُمر ابنتي: هل تدرسين الروسية شغفًا بهذه اللغة؟

انبهرت عندما سمعت كلمة «شغف»، انبهرت حتى إن نوبة من الضحك المتواصل المصحوب بدموع قد باغتتني. لم أستطع أن أجرح رومانسيتها وأصدمها بمعنى الشغف عند من يقتربون من الخمسين: الشغف يا ابنتي يتسرسب منَّا طوال الثلاثينيات، وعندما نأخذ مقعدنا ونتسلطن في الأربعينيات تصبح هذه الكلمة بلا معنى.

الحقيقة، إنني كنت أنوي السفر لحضور مباريات المنتخب المصري في المونديال؛ لذا بدأت تعلم الروسية، وقد حالت ظروف خاصة دون سفري، لكنني استمررت في الكورسات حتى أصبحت في المستوى الثالث.

كوشي، سأقول لَكِ سرًّا: لقد حصلتُ في امتحان المستوى الثاني على 98%، وقد تكون درجاتي هي الأعلى بين زملائي في الكورس، الأكثر شبابًا الذين لا تتجاوز أعمارهم الخامسة والعشرين، عشرون عامًا من المعلومات والقراءة والمعرفة تشغل كل مساحة عقلي فتجعل قدرتي على

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تقبل معلومات جديدة ونطق كلمات جديدة أشق وأصعب. لذا فأنا في الحقيقة أُعاني من تعثُّر في قراءة اللغة الروسية، أنا أجد صعوبة في تذكُّر أصوات الكلمات، وفي ترجمة الرسوم والنقوش إلى أصواتها الصحيحة، لا تضحكي وأنتِ تُدحرجين الكُرة وتجرين وراءها، وتكررين نفس الفعل السخيف دون ملل. وتتساءلين: ولماذا تستمرين؟ أنا مستمرة ببساطة لأنني أكره الفشل.. ولأنني ذكية، وذكائي يسد ثغرات ذاكرتي المُمتلئة، صحيح أن الأمر لا ينجح في كل الأوقات، لكن على الأقل ما زلتُ مستمرة وأحاول، وأحيانًا أستطيع أن أنزع من معلمتي الروسية «مدام لودميلا» كلمة: خراشو (جيد جدًّا).. الدراسة والامتحانات يا قطتي كما الحياة، لا تعتمد فقط على ما نعرفه، هناك عامل مهم هو: الخبرة. إنها عصا موسى القادرة على أن «تكوِّش»، وتجعلك في الصورة النهائية لا تظهرين على حقيقتك، ولكن تظهرين كما تودِّين أن تظهري في الصورة.. هذه الحكمة تحميكِ من خداع الصورة، ووحدكِ تستطيعين أن تري حقيقة نفسكِ، فلا يغضبكِ ذمٌّ، ولا يطربكِ إطراء.

Telegram:@mbooks90

كوشينا، أنا أُعاني من فوضى عارمة، أغبط الذين يستطيعون فصل أنفسهم عن العالم المحيط، لكنني متورطة في تفاصيل يومية، تفاصيل إنسانية، تفاصيل تتعلق بالمرض والحياة والموت.

كوشينا، أنا ممثل يندمج في دوره ولا يخرج منه حتى بعد توقف الكاميرا عن الدوران.

في أحد اختبارات الشخصية.. كان هناك سؤال: هل تودُّ الطيران أم

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أن تكون لديك طاقية الاختفاء؟ لا أُريد الطيران، أنا ثقيلة جدًّا، ولا أُريد أن أقترب من الشمس الحارقة.. ربما أطير في يوم غائم، سأختار أن أكون مخفية.. لا أُريد أن أتلصَّص على أحد.. سأُغمض عينيَّ وأجلس، ولن يُقاطع اعتكافي أحد.

تدهش عائلتي ويتساءلون: لماذا تتركين موبايلك حتى «يفصل شحن»؟ وأنا أرد: عادي.. أنسى.. تكرار هذا الموقف أصبح يمثل نموذجَ سلوكٍ.. يمكن أن أفسره بأنه رغبة في الهروب.. لا أُريد الهروب في المطلق، وإلا كنت اخترت الطيران.. أخلاقي لا تسمح لي بالهروب، فأُراوغ كي أكون مخفية لبعض الوقت، لا أُريد أن أكون مُتاحة، فلا يُحمِّلني ضميري وزر عدم النجدة أو المساعدة. كوشينا: أنا لستُ مريضة.. أنا أتفهَّم ما يجب عليَّ القيام به، ولكنني أتفهَّمه أكثر مما ينبغي.

كوشينا، قد أطلتُ عليكِ، لكن حرف الكاف في مطلع اسمكِ، والشين، والنون، تُحيلني للفعل: كن، وللمشيئة الكلية. وهذا يُخيفني لأني لا حول لي ولا قوة، وكونك قطة هجينًا بين الشيرازي والسيامي، يُولِّد في أعماقي المظلمة عنصرية بغيضة، فأتعاطف معكِ، لكني لم أحبك بعد، فاعذريني، وتقبَّلي اعترافي وأسفي، وثقي أنني لن أُقصِّر في رعايتكِ، أنا ملتزمة بواجباتي مُطلقًا.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تدريبات للحياة

تطلب المدربة أن أُخفض رأسي في الماء، أن تكون ذقني مُلاصقة لصدري، يخفض رأسي، ومن خلف النظّارة أرى أرضية «حوض السباحة»، طبقات من الماء وانعكاسات للضوء تصنع قوس قزح، ونجومًا.. حركات اهتزازية لطيفة، أتمنّى لو أظل هناك بعيدًا.. أودُّ البقاء هناك.. الاحتماء.. النسيان، لكن قلبي يدقُّ.. ويسري في عروقي مخدر خفيف يجعلني أشعر بألم.. لكنه ليس حادًّا.. نحن كائنات برية، لكننا في الأصل كائنات مائية، يوجد الجنين في وسط سائل تسعة أشهر.. يطفو، ويتحرك.. لكن نَفَسي يبدأ في الانسحاب، أحتاج للتنفس، فأرفع رأسي وأعود للعالم.. فوق الأرض، تتنفَّس بشكل تلقائي.. لا تحتاج لجهد، بل إننا ننسى كثيرًا أننا نتنفس أصلًا، لكن في السباحة عليك تنظيم تنفُّسك، وأن تتعرف على قدرتك.. سعتك، مخزونك، حتى لا ينفد نَفَسُك قبل أن ترفع رأسك من الماء.

يقول العِلم: إن الطفو فوق سطح الماء هو خليط من المتواليات والحفريات وسلاسل التطور من كائن وحيد الخلية.. بسيط، إلى كائن معقد في كل تفاصيله وأبعاده.. كل ما يستلزمه الطفو موجود في جسم الإنسان، لكنه يحتاج إلى شجاعة أن تظهر ما لديك، وأن تستفيد من إرثك.. الطفو عملية ميكانيكية، وليس عملية عقلية.

تقول المدربة: لا تخافي، جسم الإنسان يعوم فوق الماء من تلقاء ذاته.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يقول جسدي: يحتاج الأمر لبعض الاسترجاعات، بعض التنسيق لتحقيق التوافق، بعض المهارات الاستعدادية لتنفيذ التعليمات.

تقول المدربة: قاومي خوفكِ.

أؤكد لها: أنا خائفة.

تقول: تعاملي مع خوفكِ.

عليَّ أن أثق بالماء، أن أثق بقوانين الطبيعة، لكن هذه القوانين تستلزم اتِّزانًا دائمًا، تستلزم استقامة كاملة كي لا تخل بشرطها.

كانت مفاجأة لمن حولي أن أُفكِّر في تعلُّم السباحة، وأن أُعبِّر عن هذه الرغبة، ثم أتَّخذ خطوات عملية لتنفيذها.. لماذا تتعلَّمين السباحة الآن وقد قاربت على الأربعين؟

لا تتعلمين السباحة كي تنقذي نفسك من الغرق.. السباحة لن تنقذك من دوَّامات المخاوف والأوهام، تطفو سفينة هيكلها من الفولاذ بحجم مدينة ويغرق مسمار.. ليس الوزن أو الثقل هو العامل المحدد، وإنما قدرتك على الإزاحة.. الإبعاد، النفي لكل ما هو ضار ومعوق وغير ضروري.. عليَّ أن أُغيِّر شكلي من مسمار إلى سفينة، يجب عليَّ فعل أشياء كثيرة كي أستطيع الطفو على الماء.. بمجرد أن أفرد ذراعيَّ على الماء، آخذ نفسًا عميقًا، أخفض رأسي، أرفع ساقيَّ وهما مفرودتان، والكعب مُلاصق للكعب.. لحظتها يكون عليَّ التخلي عن أثقالي، عن حذري، عن مسؤولياتي، عن تشنُّج جسدي.. في لحظة التحرر هذه يُكافئني الماء فيرفعني بهوادة وبُطء، بتأنٍّ

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وتمهّل، فأطفو.. أطفو.. وأسير مع تيار الماء.

فجأةً، تزداد دقات قلبي، وأخاف، فأفقد انسيابية جسدي وأتشنّج، الاستسلام دومًا يعني الموت، فيغرق جسدي ويتحوّل لكُرة ضائعة في دوّامات الماء، أتخبّط بذراعيَّ وساقيَّ، يتحول النور أسفل الماء إلى ظلام، أتوه، أتخبط أكثر، وفجأة أراها مجرد زهرة صغيرة، تنمو، حيث لا ضوء ولا دفء.. الزهرات الصغيرة التي تنمو في الظلام تباغتها الدوّامات، فلا تعرف كيف تتصرف حيال الموج المتدفق، وتغمرها شلالات الضوء، لكنها تتصرف بحنكة وحكمة، مَن علّمكِ أيتها الزهرة أن تعتمدي على ساقيك، وأن تثني رُكبتيكِ إلى باطنكِ وتدفعي بساقيك بقوة، وتضربي بكعبيكِ في أعماق الأرض، وترفعي يديكِ وأوراقكِ عالية، فتكوني زهرة عباد شمس.. لم يُلاحظ أحد اضطرابي تحت سطح الضوء الماء، يداي أداة إنقاذ، إن استعملتُهما كمجداف مستقيم متوازن نجوتُ، عليك أن تدفعي بقوة.. كأم عليك أن تدفعي بقوة في لحظات الولادة، تدفعين بقوة كي تتخلصي من الألم.. الوجع، لا تتخبطي كي لا يتلاعب بكِ الماء.. عليكِ أن تدفعي بقوة كي تقفي مستقيمة، كي تستعيدي توازنكِ وتبقي على قيد الحياة.. الاستقامة والتوازن هما سر البقاء، وما عداهما أشياء ثانوية.. لكن مَن منّا يتحمّل تكلفة الاستقامة؟

البراح الذي يسكنني

- هل يمكن أن تحميني؟

- طبعًا.

- أحتاج ألَّا أرى أحدًا.. أحتاج ألا أتعرَّض لكل هذه الموجات المُتداخلة من الأحاديث والأحداث.. ضربات قلبي مُتسارعة، متوترة، أحتاج لسلام، إلى صمت، أُريد ألا أتحرك من السرير، أن أظل ثابتة في مكاني، ويكون ما حولي ساكنًا، خاملًا، أن أُصوِّب بصري تجاه الأشجار الطويلة الكثيفة التي تمتد على مدى البصر.. أغلق الستائر، الهواء الخفيف الذي يحرك زهرات الجهنمية، وقمم النخيل، يجعل قلبي يزداد خفقانًا، والسحب البيضاء المُتسارعة في تغيُّرات تكويناتها تزيد اضطرابي.. أين الخريف؟ أين السكينة الحانية لأيام الخريف، حيث السحب غائمة وبطيئة وثقيلة، والضباب يُعطي العالم جوًا أسطوريًّا يخفي أكثر مما يبين؟

- نبضكِ مُتسارع، ولُهاثُكِ نفسي.. اهدئي.. هل أُعطيكِ مُنوِّمًا؟

- لا، لا أُريد أن أنام.. النوم لم يعد يمنحني أي سلام أو سكينة.. نومي مليء بالأحلام.. وأحلامي صاخبة أكثر من صحوي.. فقط أَخفتْ الإضاءة.. لا أحتاج لمؤثرات بصرية كثيرة.

- سأظل بجوارِكِ حتى تهدئي.

- هذا الأسبوع كان طويلًا كيوم الحساب.. وثقيلًا كصخرة سيزيف.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- فعلًا.. بدايته كانت صادمة.

- كانت قاسيةً.. لم أتخيَّل أن يمتد الهذيان لتفجير مُصلِّين في مسجد.

- شادية ماتت.

- شادية لم تمُت.. اكتملت أسطورتها.

- كان الحزن مُبالغًا فيه، وتمنيات الشفاء بلا معنى، وهم يعرفون أنها سيدة تقترب من التسعين، فطبيعي ومتوقع مرضها.. موتها.

أفلتت يده.

- أنت قاسٍ.

- القسوة أن نكلف أنفسنا والآخرين ما لا نُطيق.

- وأنا صغيرة كنت أُعاني من «قُصة شادية».

- كيف؟

- كانت أمي تقصُّ شعري من الأمام «قُصَّة شادية»، فكان الأولاد والبنات في المدرسة وأقاربي من العائلة يطلبون منِّي أن أهز رأسي يمينًا ويسارًا كي يتحرك شعري الناعم على جبهتي.

- ولماذا لم ترفضي؟

- في البدء كان الموضوع مصدرَ زهوٍ داخلي بشعريَ الناعمِ الذي يحمل جينات كورية أو صينية، لكنه أصبح من كثرة التكرار ثقلًا أحمله على

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

جبهتي.

- وماذا فعلتِ؟

- تحملت حتى طال شعري وأصبحت أُسرِّحه للخلف، وماتت «قُصَّة شادية».

- هذا الأسبوع كان مُجهدًا لكِ، تجهيزات حفلة المولد النبوي أخذت من طاقتك الكثير.

- المهم إن الأولاد يفرحوا، غنوا ومثِّلوا، وكان وزَّعتِ عليهم حلوى المولد.

- المفروض توزَّعي معها فرشاة ومعجون أسنان.

- معظم الدادات لم يشترين حلوى هذا العام فوزَّعت عليهن أيضًا.

- الفلوس أفضل، ويستفيدوا منها أحسن.

- ليس كل شيء خاضعًا لهذا المنطق الاقتصادي، هناك أشياء وعلامات تُريحكَ أو تُجهدكَ.

- أمس استيقظت من نومي كي أطمئن على الأطفال، كانوا نائمين، لكن طفلًا طلب أن يشرب، فأعطيته كوب ماء، وكنت عطشانة جدًّا، فشربت ما تبقَّى من كوبه.

- أنت لا تُراعين القواعد الصحية، وتختلطين بالأطفال بطريقة مُرعبة..

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تشربين من أكوابهم، وتأكلين ما يتبقَّى من طعامهم، وأحيانًا تُخرجين طعامكِ من فمكِ وتعطينه لهم.

تُقبِّل باطن كفِّ يده وتسند خدَّها عليه.

- كنت قد نويت الصوم أمس.. لكني استيقظت عطشانة فشربت.. نظرت للساعة كانت الخامسة إلا ثُلثًا، اعتقدت أن الفجر قد أذَّن، ولكن بعد أن ذهبت لحجرتي سمعت الأذان.. شعرت بأنها رسالة.. وعُدتُ لنية الصوم.. أقول لَكَ على سر.

- سامعك.

- منذ فترة طويلة لم أصلِّ الفجر.. وهذا هو السبب في أنني لا أعرف ميقاته هذه الأيام.

- ممكن تضبطي الموبايل على مواعيد الأذان.

- جمال صلاة الفجر أن تستيقظ له بمفردك.. أن تسحبك روحك من غفلتك وتتنبَّه حواسك لدعوة الملك وجلال الموقف.

- الخطيب فاز في انتخابات النادي الأهلي.

- الخطيب اختفى شعره الكثيف، وبدأ الصلع يزحف لمقدمة رأسه.

- ناس كتيير مبسوطة.

- هذا بلد صور ذهنية، وليس بلد إنجازات، وعلى الرغم من ذلك أنا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مبسوطة لبيبو.

- أنت تقدسين الأساطير.

- نحن سلفيون بالفطرة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ورم مشاكس يؤنس وحدتي

الصدى

لم يكن هناك مجال لأي كلمات. فقط تربيتات من أصابعي على يدها القابضة على الكرسي في طريقها لإجراء أشعَّة تداخلية لأخذ عينة من الورم.. أرشدنا الممرض لمكاننا في آخر الممر الأزرق الطويل. أسندتُ ظهري بجوار أحد الأبواب الرمادية التي تفتح بين فينة وأخرى لتخرج منها أجساد مُنهكة من الألم وأجساد تابعة لها مُرهقة من الترقب والرجاء والخوف والأمل.

سندت رأسها لجذعي فانتقل إليَّ نبضها وانحنيت برقبتي كي أتابع وجهها الأبيض الشاحب، كان جلدها أملَس نقيًا دون مسام كقطعة من عجين لدن تعكس تقلصاته، وحركات عضلاته المُرتجفة والمُباغتة ما بداخلها من ألم، وكان الضغط على أسنانها وتشنُّج فكَّيها يُخبرني بما تحاول أن تكتمه.. لم يكن الألم مُوجعًا فقط، لكنه كان مُعذِّبًا، جلادًا لا يعرف الرحمة، وسياطه تتوالى على وجهها، تموجات الألم كانت مقروءة واضحة مسجلة على صفحته. أمام انقباضات وجهها كانت تنزاح وتُمحى كل تعبيرات: الألم نعمة، الألم رحمة، الألم حياة، كان الألم جحيمًا مصلوبة في أتونه، قضمات وحش كاسر ينهش في داخلها، ومع كل قضمة كانت تخرج منها همهمات مكتومة: «ماااامامااااا ماماااام» تنفُث بها بعضًا من ناره.

لم تكن أمامها فرصة لترويض ألمها للسيطرة عليه بحيث يخف أثره، كان

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مصدر ألمها يعمل منذ فترة في صمت يأكلها بروية، كان ماكرًا مُراوغًا.. ضرب كل عملياتها الحيوية.. الضغط منخفض، السكر منخفض، بروتين الدم منخفض، كان يرسم مخططه بدأب ومهارة سفاح.. ويُرسل إشاراتِ ألم مُحتمل يُشخصه الأطبَّاء بالكشف الظاهري: التهاب في القولون، لكنه كان أكثر من مجرد تقلصات أو التهاب.. كان ورمًا قابعًا في حوضها، يرسل لها إشارات مُراوغة بدُربة الذين تعوَّدوا على الظلمة والخديعة.

الورم الذي تكاثر في داخلها لا يمكن أن يكون وليد يوم، أو شهر، أو عام.. لكنه كان مُراوغًا، وظل مُتناغمًا مع مسببات إرهاقها اليومي وكدحها لزوج وطفلين كان لهما من فِرط الحركة والشقاوة النصيب الأكبر. الشعور المتواصل بالإرهاق الشديد، كانت مسبباته الظاهرة واضحة وجلية، مع سيدة مصابة بوسواس النظافة والترتيب والتنظيم.

السؤال الذي لم نطرحه بحروف، لكننا أرهقناه فحصًا بالصمت، بالحيرة، بالدقة في اختيار الكلمات والإشارات هو: لماذا، ما الذي جعل خلاياها تحيد عن طبيعتها، تتمرد وتخرج عن خطها المرسوم، فتتكاثر وتتضاعف دون الحاجة لذلك؟ كان لي تفسير، ولأمي تفسير، نتبادل التنهيدات في صمت.. في أسى الغافلين.. تراكم الإجهاد، مع الإحساس الدائم بالضغط والقهر، أن شيئًا من أحلامك لم يتحقق، الشعور بعدم الأمان، بعدم وجود حليف يدافع عنك، حائط تستند إليه دون قيد أو شرط، عدم الولاء الكامل، كل ذلك أدَّى إلى نوع من الفتور في علاقتها الزوجية، شعور بالاغتراب، بالوحدة، لم تكن الحياة محبطة طوال الوقت، لكن الحذر الدائم من الألغام التي يمكنها

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أن تنفجر في أي لحظة في وجهها إذا حادت عن التوافق والمُراعاة والتواؤم، جعلها دائمًا في توتر، ترقب، عيناها دائمًا للخارج، وإذا حدث وانفجر لغم في وجهها، عليها أن تستعيد توازنها سريعًا لتُلملم أطرافها المبتورة.

مع كل انفجار تعود وتُلملم أشلاءها وتُعيد تركيبها، وببعض من اللطف والاعتذار وقليل من الندم كان زوجها قادرًا على إعادة تجميع أطرافها.. لكن ما لم تلاحظه، وما لم يُلاحظه أحد أن أطرافها المبتورة كانت تفر منها خلية، خليتان، شيء لا نراه بالعين المجردة، لكنه يتجمع في تجويفها، تتجمع الخلايا الفارة، الهاربة، المتمردة، الباحثة عن خلاصها لتتنفّس عن غضبها وحنقها من الملل والتكرار والخوف والوحدة، لكنها في غضبها الأعمى، لم تدرك أنها ستسقط فريسة ذئب ماكر، وأن خلاصها ليس له ثمن سوى الألم والوجع وانتظار بائس حائر في ممر أزرق طويل، بجوار أحد الأبواب الرمادية.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الصوت

الألم.. الألم ليس حليفًا.. الألم ليس عدوًّا.. الألم طابور خامس ينشر الشائعات، يُشوِّش إدراكك، ويُلهيك عن معركتك الحقيقية.. لا يُنذرك الألم قبل بدء الحرب، فتستعد مبكرًا، لكنه يتلكَّأ كثيرًا في الأزقَّة والحارات، يتسكَّع بجوار أسوار الحدائق مثل طفل مشاكس تطلب منه أمه شراء كيس ملح لتجهيز الغداء، لكنه لا يدرك الوقت، ويعود لأمه وقد جلس الوالد للمائدة، والأم في حيرة بين سوء التنظيم وسوء التربية.

ليس للألم بُوقٌ يُعلن عن نفسه قبل مَقدِمِه، ليس للألم نفير، وعندما تظهر رايته تكون المعركة قائمة بالفعل، وقد تحوَّلت القوانين العادية إلى قوانين استثنائية. لكن الألم يصر على أنه رسول، وعليك أن تُكرم وفادته، وأن تؤدي له واجب الضيافة، فيشغلك الضيف الثقيل عن دفن قتلاك، ومواراتهم الثرى، وتطبيب الجرحى، وتحصين وتجهيز البنادق والمدافع للجولة الثانية. يمنعك الألم بانشغالك بطلباته المُلِحَّة أن تخطط لاستراتيجية المواجهة.. فتتحرك قطع الشطرنج بمفردها، وتبدو القواعد عبثًا كبيرًا: الحصان يسير مندفعًا للخلف والأمام، والقلعة تجري على شكل حرف إل.. كل القواعد التي تعلَّمتها.. كل التجارب التي خُضتها.. كل الأشياء تفقد معناها، وتُمحى الذاكرة.. تصبح بلا حليف أو سند، وبينما يتهاوى عالمك، يطلب منك الألم أن تؤدي واجب ضيافته.. ويردد أمامك مُعاتبًا حكايات وأمثولات عن العُصاة، ونكران الجميل.. فلا نبي في قومه.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أيها الألم، بماذا أضيِّفك؟ فناجين القهوة تحطَّمت، والشكولاتة السوداء نخرها السُّوس. أيها الألم، خبَّأت أمي الطعام بعيدًا عن حجرتي، أنا أشتاق إلى الطعام، لكنه لا يثبت في معدتي.. أيها الألم، ثلاجتي فارغة.. فلن أُضيِّفك بمشروب أو فاكهة وروحي خاوية. فلن أضيِّفك بحكاية أو مُسامرة.. ومتألمة وحائرة.. الأطباء وحدهم يستطيعون التعامل مع الألم، يملك الأطبَّاء حسمًا لا تمتلكه مريضة مثلي. منذ حل الألم في ضيافتي وأنا أفكر في العالم الذي اخترع المُسكِّنات، أتخيَّله عجوزًا تقف بالمكنسة على عتبة بيتها تهشُّ الغُرباء والألم.. الأطبَّاء لا يُراعون أصول اللياقة ولا يعيرون لهذه الشكليات أي اهتمام.. وصف لي أحدهم لصقة مورفين تركيز 25، وبعد يومين، عاد الألم لا كنذير شُؤم، ولكن كرجل جريح خدعته حبيبته. أخذ يضربني بعنف وبقسوة وأنا أصرخ لم أفعل شيئًا، لم أفعل شيئًا.. عن أي خديعة تتكلم؟ أنا المخدوعة، دعني لمعركتي الحقيقية، دعني أتنفس بعضًا من الأكسجين، بعضًا من الطاقة كي أُرتِّب صفوفي وأحارب بها.. جنودي مُثخنون بالجراح، وقادة الميدان مضطربون.. يحتاجون إلى خطبة حماسية، خطة نابوليونية، دعني أستدعي «مونتجمري»، أتمثل ثبات الروس وثقتهم من «دعوهم يأتوا لموسكو، موسكو مقبرتهم».. لكن ظل الألم جاثمًا على جسدي، صرخت.. صرخت، تحولت إلى كتلة صراخ.. حضر الطبيب، وقيَّد الواقعة اغتصابًا كاملًا، وأعطاني لصقة مورفين أخرى تركيز 50.

Telegram:@mbooks90

يا الله، أن يختفي الألم، أن يختفي البعوض، الذباب، الذئاب، الثعالب، الضباع.. أن تحل الراحة.. السلام.. أن تظهر الملائكة على نافذتي. ضوء

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أبيض بجناحين.. الرب يرسل علامة أنه موجود. الرب يظهر بعضًا من رحمة.. بعيدًا عن زمن الأنبياء، لن أحكي ما رأيت. يمكن إن انتشرت الحكاية أن يقول طفل لأمه: ماما، لا توجد ملائكة تظهر خلف النوافذ. ساعتها لن أُجادل، فربما كان مجرد انعكاس لأضواء مشروع محور الورَّاق على النيل، حيث تطل حجرتي.. أيا كان ما رأيت فقد كان ساحرًا.. أيها الليل، ليتك تطول، وأبقى في اللا جاذبية، في كبسولة عائمة.. عندما تظهر الشمس أحزن، ها هويوم جديد في عجزي وقلَّة حيلتي، لا حول لي ولا قوة وسط أنقاض خلاياي والرغبة الدائمة في القيء وسوائلي تحاصرني، وأغرق فيها، حصوني مُهدَّمة، والألم ضيف ثقيل طابت له الإقامة في خرابي.

تقول الأساطير يمكنك أن تتخلص من لعنتك قبل أن يحملها عنك شخص آخر.. يا الله، هل يجعلنا الألم نفقد إنسانيتنا؟ لعله يُحييها.. يُحيي أسوأ ما فيها: ثقل الطين وكثافته.. لزوجته وعفنه.

يصل لسمعي صوت طبيب: هذه الجميلة النائمة ستكون آخر حالة في وردية الليلة.

يسألني: ماذا بكِ يا أميرة؟

ترد الممرضة: تورَّمت ذراعاها، ولا مكان فيهما لكانيولا.

يهمس لي الطبيب: لا تخافي. أيها الطبيب، أنا لا أخاف، أنا أتألم.

يربطني جيدًا لطاولة الجراحة.. تمسَّكي جيدًا، أنتِ خفيفة جدًّا ويمكن أن تسقطي.. يعطيني مخدرًا موضعيًّا.. ويفتح ثُقبًا في رقبتي، يضع «كانيولا»

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وخرطومًا طويلًا في أحد شراييني.. ينتهي وقد أصبح لديَّ ثُقب في رقبتي. أُصبت باللعنة دون أن أحصل علي قوة مصَّاصي الدماء، أو خلودهم.. أيها الطبيب.. هل يمكن أن تسحب كل دمي وتقطر منه الألم؟

يربت الجرَّاح على جبهتي: يا أميرة، الألم يحب الجميلات.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الصوت

في مرقدي، وبينما أُروِّض ألمي، يأخذني السير لأماكن بعيدة لم تطأها قدماي، وربما لم أُشاهد لها صورة على شاشة موبايل أو صفحة مجلة.. أسير تحت أشجار الكوكا في جبال الأنديز. أُمدِّد جسدي على العُشب في ظل شجرة، تتساقط الأوراق على وجهي، أُجرِّب أن أمضغها فيقل الألم، ويطيب لي المقام في بلاد بعيدة، ومن أقصى الجنوب الأمريكي أطير إلى وسط آسيا، حيث مساحات شاسعة من الزهور متعددة الألوان: الأبيض، والأحمر، والأصفر.

أبحث عن زهرة لم تتفتح، يسبقني لواحدة ولد صغير حافي القدمين لم يتجاوز العاشرة، وبسكِّين حادَّة يجرح جدار الزهرة الخارجى فيسيل دمها أبيضَ كثيفًا لزجًا، ويتحوَّل بمرور الساعات للَّونين: البُني والعسلي الغامق. مركب مثل الصمغ يجمعه الفلاحون الفارُّون من مطاردة ومداهمات الشرطة، حيث تُحرم زراعة الخشخاش لغير أغراض الأبحاث الطبية والصناعات الدوائية، لكنَّ الفلاحين الفقراء الذين لا يعرفون غير هذه الزراعة سيُراوغون من أجل لقمة العيش ومن أجل الكسوة، لن يطمع الصغير المُرافق لي في حذاء، فهذه رفاهية لا يملكها أبناء النسيان.. يمكن للجميع أن يُدين كل ما هو غير مشروع.. كل ما هو غير قانوني.. لكنني الفرد الوحيد في مُعاناته وألمه سأُؤيِّد الخشخاش.. الأفيون.. المورفين.. أية مادة تكون حليفي وسوطي الذي أُروِّض به ألمي.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

رحلة الخشخاش من نبات سرِّي إلى نبات مُحرَّم إلى لاصقة طبية بنسب مُقنَّنة مُصرَّح باستخدامها تحت الإشراف الطبي، ليست بالرحلة السهلة.. إنها دروب سار فيها كيميائيون وعلماء لفصل المادة الفعالة من نبات الخشخاش.. مدينةٌ أنا بلحظات سكينتي للصيدلي الألماني فريدريك سورتونر الذي اكتشف المورفين عام ١٨٠٤، وأطلق على المادة المستخلصة «مورفيوم» نسبة إلى «مورفيوس» إله الأحلام، أحد أبناء «هيبنوس» إله النوم في الأساطير الإغريقية.. «مورفيوس» و«هيبنوس».. أجمل الأسماء التي أترنَّم بها بين يقظتي ونومي.. في الحالة التي أصبحت فيها شجرة جافة تنتظر الشمس، مجرد جسد يرتد لاحتياجاته البدائية؛ الطعام، الإخراج، النوم.

عندما أسترد عافيتي سأسافر لكوكب عطارد.. لن أغيب كثيرًا، فقط سأعود بأحسن وأطعم بطاطس مقلية تذوقها إنسان.. منذ أن أصبحت ماهرة في الطبخ وظهرت كراماتي في المعجنات والمكرونات غير اللحوم والبانيهات، وأنا أنصح أخواتي وصديقاتي المقربات بأن أفضل بطاطس مقلية هي التي تُقلى مرتين: المرة الأولى على نار هادئة، والثانية على نار حامية، وهي الطريقة التي بفضلها تتكون القشرة الخارجية المقرمشة سريعًا فتحبس بخار الماء داخل إصبع البطاطس، وبفعل سخونة البخار يتحول قلب البطاطس لمخفوق زبدي هش.. لكن لا شيء في هذا العالم منذ أصبحت لاصقة «دروجيسيك ٥٠» لا تُشبع ألمي. صار يتم ببساطة أو يُسر، كل حركة شهيق وزفير تحتاج لمواءمة وضبط، رفَّة جفني: عملية ميكانيكية

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وعضلية وعصبية مُعقَّدة.. صارت نصيحتي مجرد طنطنة وتبسيط مُخلٍّ لما يحدث في عالم البطاطس المقلية. كل الأمور أصبحت مُعقَّدة، متداخلة، لا شيء يخضع للصدفة؛ حتى البطاطس المقلية التي أحبها، ولا أستطيع تناولها، صارت الآن عالمًا.. دُنيا.. كونًا عليَّ أن أعرف قواعده وقوانينه، ليس مجرد أن نمسك سكّينًا.. نقشر.. هوبًّا.. وياَلَّا.

الحصول على أصابع البطاطس المثالية التي تجمع بين قشرة خارجية ذهبية رقيقة، وحشوة داخلية ساخنة ذائبة، يتطلب معادلات واختبارات علماء في المعامل، وليس مجرد اجتهاد طباخين مهرة، وهناك علماء كيمياء يكرسون حياتهم لبحث ودراسة العوامل المختلفة التي تؤثر على سرعة أو بُطء التخلص من بخار الماء لإعطاء البطاطس المقلية هذه القرمشة الخارجية والذوبان الداخلي.. جامعات عريقة في أمريكا وأوروبا تُواصل الليل بالنهار لدراسة الأمر.. نظريات، وأجهزة طرد مركزي، وموازين حرارة، كلها تعمل من أجل الحصول على أحسن بطاطس مقلية.. والخلاصة الصادمة لعشاق «البوم فريت» أن كوكب الأرض ليس هو المكان الأفضل في هذا الكون لقلي البطاطس، وأن البطاطس تُطهى بشكل أفضل في ظل جاذبية تساوي ثلاث مرات جاذبية كوكب الأرض، وهي بيئة مشابهة لتلك المتوفرة على سطح كوكب عطارد.. فمن يرغب في السفر لجبال الأنديز أو سهول الأفغان أو الكوكب الأحمر والعودة بأوراق صغيرة طرفية مستطيلة وزهور خضراء غير ناضجة وكيس بوم فريت.. ليُهديها لشجرة جافة تنتظر الشمس؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الصدى

يوسف أيها المحظوظ، من يحمل البشارة يحق له أن يقول: «اذكرني عند ربِّك»، أما المُكبَّلون بالشفقة والفقد فلا يمتلكون غير الصمت.. يخافون العلامات، الإشارات، يخشون أن يهمسوا بالأسماء «وعلَّم آدمَ الأسماءَ كلها»، فهل لم يعرف اسم الغواية، اللذة، الألم، المعرفة، الحية، التفاحة؟ ماذا لو كان صحيحًا أن النطق بالسر يستدعيه؟ ألم يصرح يعقوب «وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون» فتحقق ما تنبَّأ؟ النطق بالسر يستدعي وجوده، تجسيده.. البقرات العجاف.. الغراب النائح.. الأسنان المُتساقطة.. القبر المفتوح.. الحوائط الصفراء.. عنبر المرضى.. طرقات المستشفيات.. الباب المُتأرجح لغرف العمليات.. من يخرج من السجن يبتهج لأنه يعرف إلى أين سيعود. أما أسرى السجن الكبير والخائفون من تقطيبة تظهر بغتةً في جبين الطبيب، ثم تختفي بعد أن يتدارك دوره، ويُدوزن أحباله الصوتية قائلًا: التقرير والأشعَّة تمام.. فقط سنحتاج لتغيير خطة العلاج. تغيير خطة العلاج.. الذين لا يغيرون رأيهم هم الذين لا يغيرون شيئًا.. هذا كلام يقوله تشرشل، وتمنحه الأكاديمية جائزة نوبل، لكن الذين لم يختبروا صورًا متعددة للحياة يهابون التغيير. كانت عمَّتي التي لا تنام والنور مُطفأ تقول: هنا أكثر أمانًا، أنا لا أحب المجهول. وكانت هذه الروح المُتشبِّثة بالحياة على الرغم من خراطيم المحاليل الموصولة من وإلى الجسم.. تبهرنا كمعجزة، لكن الأطباء كانوا ينظرون لحالتها على أنها حالة في هامش ناقوس متوسط الحالات الطبية.. حالة يمكن أن أكتب عنها قصة، لكن الطبيب لا يعتدُّ بها

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عند ذكره لنسب النجاة من الموت بسبب تليُّف الكبد.. الأطباء صادقون ودقيقون، ولا تخدعهم حلاوة الروح.. فقد ماتت عمَّتي قبل ثلاثة أيام من الموعد الذي قدَّروه.

كم واحد منَّا هرول خلف معطف أبيض وذراعين معقودتين خلف الظهر وجذع محني قليلًا للأمام، وهمسنا وأنفاسنا تُلاحق الخطوات الفارَّة المُتسارعة: دكتور.. التقرير غير مُطمئن .. وأتردد هل أرفع الصوت قليلًا وأضع علامة استفهام.. أُوحي له بتيهي وخيبتي أم أخفضه وأضع نقطة تختم عبارة تقريرية كي أُوحي له أنني مُتفهِّمة ومُقدِّرة، وسأظل ألهث دون توقف في الممرات والمجرات والمدارات المرسومة.

يربت الطبيب على كتفي. وحدها موظفة «الجمع والتصحيح» تستطيع أن تفسر لمسات أصبع الطبيب على كتفها.. التي اعتادت أن تلتصق الحروف بأصابعها، وأن تتسرَّب روح الكلمات التي تجمعها إلى مسامها، أحيانًا تبقى كلمات تحت الجلد، وأحيانًا تنتشر الكلمات أبطأ من المحلول الوريدي في شرايينها.. رويدًا رويدًا، لكن بثبات.. كما أن كل التجارب التي تخوضها للمرَّة الأولى وترشد نفسها بنفسها، وتضع دائمًا بيانًا لكل الخطوات التي سارتها، والعمليات الحربية التي خاضتها.. فتُسجِّل في ذاكرتها البيان الخامس: «على الممرضات غير المتمرسات الانتباه لغطاء (الكلونا) حتى لا يخرج المحلول الملحي أو السكري الذي دخل للوريد.. ستكون الخسارة فادحة لأن روح المرضى الذين يتعذَّبون من الألم تبحث عن أي منفذ، وستجد في الفتحة منفذًا للخلاص.. بعيدًا عن حفلات الألم السَّادية».

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مدينةُ أنا، وكل الممرضات في العالم لـ«كولين مردوخ» الرجل الذي قدَّر حجم المُعاناة من الاستخدام القديم للحُقنة أكثر من مرَّة، فاخترع الحُقن التي تُستخدم مرَّةً واحدةً، وتكون مُعقَّمة وجاهزة فورًا للاستخدام.

ما زلتُ لا أجرؤ على إعطاء حُقنة. يقول الراسخون في العلم: «تدرَّبي في برتقالة.. ليمونة.. سأُحاول.. حقن وريد.. حقن عضلة، حقن تحت الجلد.. وأسماء: بنجامين روبن، ابن سينا، الفراعنة.. لكل الأشياء تاريخ طويل من التطوير، لا شيء يظهر فجأة أو صدفة».

لا يُجيب الطبيب عن سؤالي. يكتفي بنصف ابتسامة.. هذا الطبيب لا يعرفني.. لا يعرف أنني اختبرت من قبل مواقف وحالات مُلغزة.. ذات ظهيرة اتَّصل بي هاتفيًّا المهندس مالك العمارة التي أقطنها، وعاتبني: «يا
Telegram:@mbooks90
أستاذة، حضرتك قلبك طيب، وتسمحين لأشكال من الناس بأن تضحك عليكِ، زوجة البوَّاب تدَّعي أن زوجها مات، وهذه تمثيلية، هو مستريح في بلدهم ويُرسلها لتستعطفكِ وتستغلَّكِ، أرجوك لا تشجعي أمثال هؤلاء على النَّصب». مرَّت شهور قليلة.. مات المهندس، وعندما علمت بالخبر.. كان أول ما تبادر في ذهني.. «وحدك ستتأكد إذا كان عم أحمد البوَّاب هنا أم هناك» ماذا ستقول لعم أحمد البوَّاب عندما تلتقي به؟ ولأنه لم يُهاتفني منذ رحيله، فأنا أُقدِّر أن الخجل الذي لم يكن لديه.. يغرق فيه هناك.. وأنه انضمَّ إلى ركب الذين يدركون أن لا شيء يستحق هذه الصراعات أو الأحكام الباترة والقاسية، والأهم أنه يرى الآن كل العلامات والإشارات دون أن تحتاج إلى تأويل.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الصوت

فريدا كاهلو، أنا أغبطك.. لسنا كلنا مُهيَّئين لتحويل الألم إلى ألوان.. المألوف والطبيعي واليومي أن المُعاناة والعذاب والقدر التعس تتحوَّل إلى مرارة، سخط، نقمة نحو أنفسنا.. نحو جسدنا الذي خذلنا وغافلنا واستسلم لأعداء ما لنا عليهم سلطان.

كأنك كنت ترسمين حالي في لوحتك «بغير أمل»، عندما يتحوَّل الطعام إلى عبء يُحاول الأطبَّاء والمحيطون بنا إجبارنا على تقبُّله.. هم يعرفون أن فقدان الشهية يمنعنا من تقبل الحياة، لكنهم يحاولون إبقاءنا مُعلَّقين بالحياة بخيوط واهية.. يا فريدا، أنا لا أعاني فقدان الشهية، أنا أحب الطعام وكنت ماهرة في صنع المعجنات والحلويات، لكنها المُسكِّنات الرحمة واللعنة. تتصرَّف المسكنات وفق المُقدَّر والحتمي، وكعادة كل الأشياء في تعاملها مع المنذورين للألم، تظهر لنا وجهها القبيح المظلم بعد فترة تمل وتفقد تعاطفها معنا، فيصبح تأثيرها عابرًا، غير مُجدٍ، وتأسرنا في هوة الأعراض الجانبية.. القيء والإمساك. هل هناك خلل وتخبُّط في الجسم يفوق أن ما تأكله يخرج من فمك دون استفادة سوى الإحساس المستمر بالنَّزف والفقد والإجهاض؟ لست وحدك من عانيت الإجهاض، في كل مرة يصرعني القيء أشعر بالإجهاض.. أنزف من فمي لُقيمات أكلتها مع انقباضات وتشنُّجات في معدتي، تطرد العصارة الخضراء والخلايا المبطنة لجدرانها.. ومعهما وقبلهما تطرد روحي كأنها عفريت يتلبَّسني، يُعاني من ضربات ودقات دفوف في جلسة زار، يتصبَّب عرقي، لا أتحكَّم في بولي. وكردة فعل

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لهذا الانسياح تتقبض عضلات أمعائي وتنزوي على نفسها، تلتصق وتلتصق حتى لا يكون هناك مكان سوى لغازات تضغطني وأحتاج إلى حقن شرجية لإفراغها.

فريدا، حرمك «شلل الأطفال» من ارتداء الفساتين دون جوارب صوفية تُداري اعوجاج ساقيك، وأنا حرمني الورم وأجبرني على أن أُغيِّر مقاساتي، وأن أُكوِّم ملابسي في (سحَّارة) جدَّاتي، حيث الماضي والذكريات التي أتمنَّى أن تعود.. هل سأستخدمها ثانيةً؟ هل تكفي رائحة اللافندر لحمايتها من «العتَّة» حين أعود لارتدائها؟ أحب فستاني الأخضر اللامع.. ارتديته في خطوبتي.. عارضت أمي أن أشتريه، الأخضر ليس مناسبًا للسهرات، لكن أصررت على شرائه، وكان جماله وأناقته مثار إعجاب الجميع، وصار موضة بعد ذلك، ولم تعُد قريباتي من الشقراوات يخفن اللون الأخضر.. تذكرين يا فريدا كيف يكون الإنسان قبل الألم؟ الإنسان من غير موجع سلطان، ملك، أمير.. كما أنت في لوحتك «في الرداء المخملي» السلام والأمن وشيء من المُباهاة الأرستقراطية، وينقضُّ الألم على أجسادنا الضعيفة سهامًا مسمومة، ويحولنا إلى «أيل مجروح».

فريدا.. لوحاتك تحكي قصصًا كالتي أريد أن أقرأها، أحتاج إلى أن أشعر بأنني لستُ وحدي هناك من يُشاطرني ويشعر بوجع الألم.. هل أقول لك سرًّا؟ أنا أحتاج لنظارة قراءة، أحتاج إلى أن أقرأ قصص المكتبة الخضراء.. القصص البسيطة التي بها صفحات مُلوَّنة، وفي خاتمتها حكم برَّاقة.. الوقت ثقيل يا فريدا، والألم يجعل النوم سرابًا، وإذا جاء يأتي قلقًا لاهثًا متقطعًا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تطاردني فيه القطط وتنهش ظهري.. القطط التي تستكين على عتبة بيتي دون بقية شقق العمارة، لا أستطيع أن أدَّعي أنني أشجعها.. أنا لا أستطيع أن أُقدِّم لنفسي كوب ماء.. فريدا، أعضائي متيبسة، والقطط تنتظر خروجي.. هل تؤمنين بتناسخ الأرواح؟ لعلِّي كنت قطًّا في زمن ما، في مكان ما.. لا بد أن هذا شيء من الحقيقة.. فلديَّ إحساس حوَّله المرض إلى يقين أنني أعيش في المكان الخطأ في الزمن الخطأ.

فريدا، لروحك السكينة التي أفتقدها، ولي الألم الذي نتشاركه.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الصوت

أمنية

لي أب وأم وأربعة أشقاء وزوج..

فمن يمنحني خمسة أعوام؟ عامين؟ عامًا؟

لا أطمع في فائض من العُمر..

فقط ما يكفي لتتعلم «ملك» كيف تجدل ضفيرتها.

ويمكن لـ«محمد» أن يدخل «الحمَّام» بمفرده.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الصدى

حين أذهب لقصر العيني لإحضار مُسكِّن «m.s.t.» الذي لا يُباع إلا بورقة عليها ختم النسر، تستقبلني وجوه تبتسم، أنا أبتسم لجميع الوجوه.. آه لو تدرك ماذا يعني العشم؟ أرتدي ملابس ليست بالغة الفخامة، وفي الوقت نفسه يمكن أن تكون «كاجوال»، لكن ماركتها المعروفة، وفرادتها تمنحني وضعًا ما، الثراء مستفز، مُتباهٍ، والفقر موجع، وباهت، وضعيف، ومحتاج، وبلا قيمة.

الشفقة هي العُملة التي يتبادلها الجميع في ممر طويل أعبره مُسرعةً سوى من وقفة جانبية مُلتصقة بالحائط انتظارًا لعبور مريض.. في الأمتار العشرة للممر الذي يمتد من عيادة الألم إلى الصيدلية، أحمل فمًا مبتسمًا، وعينين غائمتين، وقلبًا مضطربًا.. وحين أدخل للأطباء دون أن ألتفت لدوري، أو حتى أعرفه، لا أشعر بتأنيب ضمير، أنا التي تحب الانضباط.. وماذا عن الآخرين؟ هل يشعرون بغربتي عن المكان؟ يمدون لي يد العون كغريق.. كغريب... عندما تكون العيادة مُزدحمة يسمحون لي بالبقاء في غرفة الطبيب، آخذ رُكنًا مُنزويًا.. أتعثَّر في اعتذاراتي وخجلي لمرضى لا يعرفون شيئًا، أو لمن لا يستطيع شراء شريط «بنادول» من صيدلية الإسعاف.

هل يشعرون بغربتي، بتوهاني؟ قطعًا يشعرون بثقل صمتي وأنفاسي المُتشنِّجة.

في الأيام الأخيرة، زاد اضطرابي، حتى إنني تساءلتُ: هل صِيَغُ دُعائي

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

خاطئة؟ وأعود وأُردِّد لنفسي: لكنَّ الله يعرف ما فيه الصالح. وصلتُ إلى مرحلة «لا أُريد الدعاء».. هو يعلم الصالح، وما يُريده يكون.

في الليلة التي سبقت وفاتها.. قالت لي: «هل يمكن أن تسألي الدكتور امتى؟».

أمسكتُ يدها الهشَّة بين يدي، وسألتها: «إنتِ عايزة امتى؟».

قالت لي: «بُكرة».

قُلتُ لها: «خلاص، بُكرة».

في الصباح رفضت أن تأخذ المُسكِّنات، وقالت لماما: أختي، قالت: النهارده، تماسك وجه ماما، وانهار فؤادها، وأجابتها:

«يا حبيبتي، ده في علم الغيب».

فثارت ثورة الضعيف، الجريح:

«إزَّاي؟ أختي قالت لي بُكرة، يعني النهارده. مش معقول تكون بتضحك عليَّا».

انتبهت ماما التي لم تحضر حوارنا، وقالت لها: «خلاص يا حبيبتي.. يمكن قصدها بُكرة».

أشاحت بوجهها: «خلاص، أنا مش عايزة منكم حاجة».

وصل الألم في هذه الليلة للذروة، حتى إن أمي سمعت العابرين لأداء صلاة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الفجر أسفل نافذتها يدعون الله أن يُخفِّف ألمها، وتحت ضغط الألم قبلت أن تأخذ المُسكِّنات.

في عصر اليوم التالي، قالت: «اتركوني، أُريد أن أستريح».. وفعلًا، استراحت.

سامحيني.. أنا لم أقصد أن أضاعف ألمك وأمسك بقرني الشمس فلا يمر اليوم.. سامحيني.. أنا لم أرغب يومًا أن أخذلك، لكنه هامش الأخطاء البشرية وفروق التوقيت.

بالله سامحيني، وكوني رحيمة، فعظامي لا تحتمل صليبًا جديدًا.

عندما يطلبون مني أن أدعو لها بالرحمة، أو أن أقرأ لها الفاتحة، لا أفعل. فقط أهزُّ رأسي بالمُوافقة، وأتلاشى في معيَّة ألمها، الذي هو كفَّارة لكل الذنوب. الرحمة قد حلَّت بالفعل.. معجزة ألا نتألَّم وقعت، ولو كان الثمن أن يكون بيننا وبينها جدار عازل من الصمت والمجهول واللا يقين، فهو ثمن مقبول وعادل.

هناك معارك كل الأطراف فيها خاسرة. الوحش يصارع موته بموتها، لا يستطيع الخبيث أن يعيش على جثث الموتى، لم يسترح حتى أماتها.

أيها الغبي، لو أنك كنت أكثر رفقًا، أكثر حنوًا، أكثر عطفًا، لو أنك راعيتها وهي تتألم وتصرخ لك: «ارحمني، ده شديد عليَّ قوي»؛ لبقيت هي سنين، وبقيت أنت حيًّا، هي لم تكن تطمع في كثير، كانت تريد -ككل الأمهات- أن تطمئنَّ على طفليها، أن تحضر فرحهما. تقلَّصت المدة بعد

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أن استوطنتها.. كانت تريد فقط أن يشتد عودهما، ويدخلا الجامعة، بعد عنادك وقسوتك، تمنت أن يكبرا قليلًا بما يسمح لمحمد الصغير أن يتذكرها.. «محمد صغير هينساني، لا أحد يتذكر عندما يكبر عالم ما قبل المدرسة». كانت تتمنَّى أن تخدم «محمد» و«ملك» حتى يستطيع أن يدخل «محمد» الحمَّام بمفرده، وأن تستطيع «ملك» أن تُسرِّح وتُضفِّر شعرها بنفسها.

هل كان هذا كثيرًا؟ ليس هذا بكثير.. لكنه فقط لم يكن مُقدَّرًا.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الصوت

فقط لم يكن ذلك مُقدَّرًا..

أن أكون شاعرة تخلط الكلمات فتصنع منها كعكة أو فطيرة أُهديها للطفلة الصغيرة التي جاءتني بالأمس، ونادت: «ماما، ماما»، ولم أستطع أن أرد عليها، سأعجن الفطيرة من كلمة «أحبك»، وأدخلها فرنَ «أشتاقُ إليك»، وأزينها بعبارة: «أنت أميرتي». وفي انتظار الزيارة القادمة سأصنع حلقًا وتاجًا وقلبًا كبيرًا تجلس فيه كلما افتقدت ماما.

فقط لم يكن ذلك مُقدَّرًا..

أن أكون رسَّامةً أجدل الألوان في ضفيرتي، وعندما يغيب النهار، وأحلُّ شعري، تشرق الشمس في قلب الليل، فتنضبط الساعة البيولوجية للخلايا النافرة، يدبُّ الدفء في أوردتي، وتتحوَّل السوائل التي تخرج منِّي بألوانها الباهتة، الشاحبة، الشفافة، الصفراء، الخضراء إلى اللون الأحمر، فيستدعي مناعتي، مقاومتي، عافيتي، وتصحو الحياة في خلاياي النائمة.

Telegram:@mbooks90

فقط لم يكن مُقدَّرًا..

أن أسكن في أعلى تلَّة تطلُّ على بحيرة في غابة سويسرية.

أن أكون موجودة بدرجة تجعل الآخرين يشعرون بالفقد لغيابي.

أن أكون ثُقبًا أسودَ يبتلع العالم.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فقط لم يكن ذلك مُقدَّرًا..

أن أرى لهفة في عينيك.. أن تتجمَّع الخيوط الدقيقة الحمراء وترسم لي صورة في حدقتيك. أن أضبط قلقًا ساكنًا في يديك، تشنُّجًا، رفضًا لما يحدث، خط ألم يسكن وجهك. خطوط الغضب تحفر في الجبهة، خطوط الألم تتجمع حول الفم، وتتسرَّب للخدَّين. أن ألمس ارتعاشًا في أحبالك الصوتية: «إزَّيِّك، حاسَّة بيه، الألم خف؟ قولي لي كل حاجة، شوش شوش.. أنا حاسس بيكي». لكن صوتك ظل ثابتًا، دون تشويش، دون لجلجة دون كسرات أو ثنيات أو شهقات خانقة مباغتة.

فقط لم يكن ذلك مُقدَّرًا..

أن تفقد شهيتك قليلًا للكلام ربما.. للطعام قطعًا.. أن تتَّسع قمصانك، أن تبدو مُتهدِّلًا، مشوشًا، أن يطاردك كابوس غيابي، فتخاصم النوم. أن تهديني قيامة ابتسامة من قبر الأسى، تنهيدة تغالب ضلوع قفصك الصدري، زهرة تماوج في يديك أو قلبًا صغيرًا، ميدالية بها حرف من اسمي.

إحقاقًا للحق، دفعت كل تكاليف المُسكِّنات، لكنك لم تشاركني أيًّا من مُخفِّفات ألمي.. أن تمسك بكفِّي الواهنة وتهزَّها وكأننا ملاكمان سينتصران ويوجهان ضربتهما القاضية للحياة.

أن نشاهد فيلم brave heart.

أن ندندن مع عبد الوهاب: «أقولُ وأُوشك أعبدُه».

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أن تكون لنا كلمة سر، لا يعرف شفرتها سوانا.. كلمة قد تضحكنا أو تبكينا، لكننا وحدنا اخترعناها.

أن تستحسن طعم التوست الأسمر، خليط الأفوكادو والسالمون. أن تستطيب قرمشة التفاح الأخضر مع زبدة الفول السوداني. أن تثمن كل السوائل التي تخرج مني وتتعامل معها كقرابين مقدسة للحياة.

فقط كان مُقدَّرًا..

أن تكون الخضراوات الطازجة دون طعم، لكنها صحية. أن آكل التفاحة، أن أخوض التجربة، أن أمشي وحدي، أن أتألَّم وحدي. أن أكون مجرد رقم، صُدفة، أن أكون يتيمة، وأن تكون ثُقبًا أسودَ يبتلعني.

وكان مُقدَّرًا..

أن أتفهَّم دوافعك، وإن كنت لا أتعاطف معك وأنت تكرر سؤالك: «هل أنا السبب فيما حدث لك؟»، وأنا أجيبك بوهنٍ: « كلنا أسباب».

وكان مُقدَّرًا..

للشيء الوحيد الذي قلت له: أنا حزينة. أن يجيبني بحياد «روبوت» على موبايل أيفون: إيمان، يمكنك البكاء إن أردت، فسطحي الزجاجي المكون من سليكات الألمونيوم مقاوم للدموع.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الصدى

يومان، أُحاول أن أتواصل معها، وهي لا ترد.

اتصلتُ بشقيقتي الثانية، وقبل أن أنطق: «إيمان، عاملة إيه النهارده؟» ابتلعني سؤالي.

أعرف أنها مشغولة بعالمها الجديد، تستكشف مفرداته، مكوناته، تحاول أن تتوازن بعد المرور بنفق اللا مكان، واللا زمن، ربما ما زالت واقفة على الباب مترددة في الدخول، أو خطت، خطوة أو خطوتين، لكنها تهاب الاستيعاب والاندماج، الأبدية فكرة مُخيفة، ثقيلة، رتيبة، مملة.

هل ستجد من يُرشدها؟ السلسلة طويلة. ألهذا أصرَّت أمي على دفنها بجوار جدَّتي؟ بالطبع، كل الأشياء مختلفة، والمعايير والمقاسات.. ربما يكون اليومان اللذان مرَّا عليَّ هنا في انتظار أن تتواصل معي وتُطمئن قلبي عليها، ربما تكون هناك مجرد لحظة، وهي لا تعرف ثقل الساعات التي تمُرُّ هنا عليَّ، ربما ما زالت تجلس مع «هناء» ابنة خالتنا التي لم يُتح لها أن تسجل مشروع الماجستير في النقد الأدبي، الحكي عن أبطال الدراما التلفزيونية يحتاج إلى كثير من الوقت. أو ربما التقت بـ«محمد» ابن خالتنا الذي لم يتخرج في جامعته، واصطحبها ليلعبا «الويجا».

لا أعرف كيف ستتواصل معي تحديدًا.. الأقرب لذهني أن أراها في حلم، رقيقة كما كانت، وقد تخلصت من تشنُّجات وعذابات الألم واستعادت عافية جسدها وبهاء روحها.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قد أراها على شاطئ بحر، والأمواج تتكسَّر من حولها، ونحن نحذرها من الموجة القادمة؛ فهي قوية، وقد تُوقعها، لكنها ستفاجئني بأنها قد تحوَّلت إلى سمكة فضية من راكبي الأمواج، أو إلى طائر نورس لا يُصيب رذاذ الموج ريشه الأبيض. براح البحر وانسياح حدوده قد يكون مناسبًا أكثر للرحيل، وهي قد رحلت بالفعل، أم أنني لا أُريد أن أصدق، وتختلط لديَّ الرموز؟

الحدائق الواسعة، والخُضرة المُطعَّمة بألوان مُبهجة تليق بالحضور الأبدي، فربما يأتيني طيفها مندمجًا في تأمل طويل.. جلسة يوجا كالتي اعتزمنا الاشتراك بها، أو ربما تجلس على مجرى مائي، تحفُّه الأعشاب، وفي يدها كتاب «كيف تستعدين لدخول طفلك المدرسة»، أو ربما تستريح على دكَّة خشبية في مواجهة بحيرة سويسرية شاهدتها في صورة رحلة صيفية لمدرسة ابنتي.

كنا قد اتَّفقنا إن تحسَّنت حالتها الصحية قليلًا واستطاعت الخروج أن نتناول الغداء في مطعم البحيرة في «الأزهر بارك».. سيكون تجمُّعًا نسويًّا نصطحب معنا شقيقتنا «وفاء»، وابنتها «نورا»، وابنتي «مريم»، وابنتها «ملك».. ثلاث شقيقات، وثلاث فتيات يمثلن الجيلين الثالث والرابع من عائلة موسومة بالحزن والفقد. لكننا لم نذهب لـ«الأزهر بارك»، ولم نذهب لفندق «وندسور» في محطة الرمل، ولم نذهب للعُمرة معًا.

أشياء قليلة استطعنا مراوغة ألمها، وقُمنا بها، آخرها مشاهدة فيلم «قلب أمه»، كانت سينما «فاميلي لاند» خالية، في هذا اليوم لم يحضر عرض

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الرابعة عصرًا سوانا أنا وهي وأطفالنا الثلاثة، كان عرضًا خاصًّا بالمُصادفة، حتى إن طفلتي «مريم»، وطفلي شقيقتي «ملك» و«محمد»، كانوا يلعبون الاستغمَّاية في قاعة العرض، وتشجَّعت «مريم» ووقفت أمام شاشة العرض وبدأت في تقليد رقصة وغناء «هيوجا كمن» في فيلم «أعظم رجل استعراض في العالم»، وتبعها ابنا خالتها في تقديم فقرات فنية مرتجلة وضاحكة، في طريق عودتنا على كورنيش المعادي، أخذت تردد مقطع من أغنية: never enough، وكانت ترثي حالها:

too much, too much is never enough.

في ألمها عاشت عامًا كاملًا، ما بين سبتمبر الصدمة، والسعي لمخرج، وما بين سبتمبر الاستسلام وتمنِّي الخلاص، مرَّت علينا كل فصول السنة فعرفنا كيف يكون الألم قاسيًا وحادًّا في الشتاء، مُضجرًا مُمِلًّا في الصيف، برائحة الحرائق في الخريف، بطعم العلقم في الربيع.

أعرف أنني متطلعة، ولديَّ توقعات كبيرة، ولكن عليَّ التمهل والصبر، سأتفهَّم تأخُّرها في التواصل معي، ولأنني لم أكن لأنازع الناس مكانتهم ولا مراتبهم؛ سأنتظر أن تزور ماما أولًا، لكن أمي سيدة كتومة، لم تجبرها الحياة على البوح أو الفضفضة.. لا أعرف كيف أسألها؟ ربما تتجلَّى معجزة فقدك، فتقطع ماما حديثًا اعتياديًّا بيننا، وتقول لي:

- إيمان جاءت لي في الحلم.. كانت لابسة أبيض في أبيض، ولديها جناحان تطير بهما، وكنت أسمع صوتي يُناديها: إيمان، إيمان.. لكنها لم تكن

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

منتبهة لي، كانت تلعب وتطير من شجرة لشجرة، وقبل أن أتضايق لأنها لا تسمعني، قطفت وردة ومدت يدها لي.

حينئذٍ، سأنتظر دوري الذي لن يغيب.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الصدى

أمي غارقة في الحزُن، وأنا غارقة في الهذيان، سلبني الألم قُدرتي على حُزني، تُسيطر على ذهني أغنيات غريبة، لا أتذكَّر متى سمعتها، أو من يغنيها: «ياللي اسمك أحلى من كل الأسامي، من بعيد لبعيد باوصلك غرامي»، وأضبط نفسي أرددها، أرددها بصوت مرتفع وأنا أرتب سرير ابنتي، وأنا أكوي بلوزتها المدرسية، وأنا في انتظار أن تجيب أمي على هاتفي، وأنا أقلِّب في ديوان «ريلكه»: «يصير المساء على الأزهار ثقيلًا، الأخوات يقفن في حياء ولا يحركن أيديهن ويصغين طويلًا ويبتسمن بخواء، وكل واحدة تتشوَّق: ترى، مَنْ يكون عريسنا؟!».

هذا الخواء لا يشغله سوى قبر أخضر، تستقر عليه ثلاثة شواهد من الرخام الأبيض، مكتوب عليها بأسود زاعق: الحاجَّة «حميدة حسن إبراهيم»، تُوفِّيت ٢٧ رمضان، وحفيدتاها الأستاذة: «هناء عرفة محمد علي»، توفِّيت ١١ من ذي الحجَّة، والأستاذة: «إيمان كمال النجار»، توفِّيت ٩ من المحرم. يختار القدر لعائلتي أيَّامًا تذكارية للموت.. ظللتُ فترة طويلة أتوجس خيفة من قدوم شهر رمضان بعد أن تُوفِّي جدِّي لوالدتي في رمضان، ولحقته جدَّتي في رمضان التالي.. ظللنا نفتقد العيد، نفرح إلا قليلًا، نبتهج إلا قليلًا، نعيِّد بحسابٍ مُراعاةً لمشاعر أمهاتنا.. في خلفية الفساتين الجديدة والبالونات الملونة، يزاحمنا الشريط الأسود الذي يعلو الصور التي تتزايد على جدران «غرفة الجلوس»، غافلنا الحزُن عشرين عامًا، لكنه عاد، جاء في أحد أيام «وقفة عرفة»، وبينما تعبر صبية الطريق، صدمتها درَّاجة بخارية، نزفت

Telegram:@mbooks90

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

حياتها على الرصيف، دخلت في غيبوبة يومين، تركت لنا يوم العيد.. زيناه بالترقب، بالرجاء، بالأمل، لكن أضاحينا لم تكن كافية، وأيام التشريق كانت ممتدة.. وصعدت ثاني يوم للعيد.

الجدَّة والحفيدات يرحلن، ويبقى الشقاء للأمهات اللاتي تصرخ ملامحهن بحُزن مشوبٍ بسؤال: «لماذا لم تكن أنا؟!». كل واحدة من الصبايا كان يمكنها أن تكون... منذ عرفتُ بإصابتها بالورم الخبيث، يسيطر عليَّ إحساس بالذنب، إحساس مَنْ نجا من سفينة غرق كل من فيها، إحساس بالخزي، بثقل الدين، أنا مدينة لها، نحن كل الحفيدات مدينات لها، فقد فدتنا وقدَّمت قربان جيلي من بناتِ خالاتي للسرطان، للمرض الخبيث.

يا لشقائنا، فنحن نساء عائلة علينا أن نكون حذرات في المحبة، وأن نحتضن بناتنا وأرواحنا مصلوبة على خشبة الاعتذار، دون قُدرة على الندم، فعبر جيناتنا نُورِّث بناتنا الألم والعذاب.. عبر جيناتنا نُورِّثهن خلل الموت. ونحن ورثنا الخلل من جدَّتنا التي أصابها «سرطان الثدي»، وماتت وهي في الثانية والخمسين من عُمرها بعد أن تعرَّضت لعمليتين، ماتت جدَّتي وكنت في العاشرة، فلم أربط بين موتها ومرضها الخبيث، ذلك أن جدَّتي بعد الجراحة عادت تعيش حياتها بشكل عادي، كما تُسعفني الذاكرة، وربما لا تكون تلك الحقيقة، ربما كانت قُدرة الكبار على التَّخفي خلف أقنعة الحمد والرضا التي يمكنها أن تُغرِّر بطفلة صغيرة وتفصلها عن الواقع. شقيقتي كان سرطانها السبب المباشر لوفاتها، غيَّر «السرطان» حياتها تمامًا، وظلت الحياة فيها تتدهور يومًا بعد يوم، كنتُ أكتب لطبيبها وأنا أشاهد عذابها: ما هذا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الوحش الكاسر؟! ما هذا الكفر؟! كان وحشًا يلتهم روحها وأعضاءها، شبابها.. في أيامها الأخيرة كانت تصرخ: «إنه يُكسِّر ضلوعي».

كل هذا الجنون، كل هذا الهذيان تم خلال شهور.. بدأنا الرحلة يوم الجمعة وفي ليلة السبت عرفنا نوعًا من الألم، لا تُسكِّنه حُقن «الفلدين»، و«البسكوبان»، و«الفولتارين».. كل المُسكِّنات الشرعية داخل الجدول، كان الألم قد تمرَّد على سيطرتها، وانطلق يعيث في أعضاء الشابة فسادًا، وعرفنا في تلك الليلة السوق السوداء للمُسكِّنات الممنوع صرفها إلا بروشتة طبية عليها ختم النسر، كنا ليلة السبت، وكان النسر قابعًا مُستكينًا في أحد الأدراج، وعن طريق المعارف، استطاع شقيقي الحصول على «لصقة المورفين».

شهور في العلاج الكيماوي والمُسكِّنات، بعدها قرَّرت أن تُوقف العلاج الكيماوي.. سألتني، لم أعرف ماذا أقول لها، أنا التي أخبرها الطبيب بأن شقيقتها الصغيرة لم يتبقَّ لها من العُمر سوى شهرين إلى أربعة أشهر. هل أُصدِّق؟ هل أُكذِّب؟ لا أعرف.. لو أن لديَّ عينًا ثالثة أستبصر بها ما وراء الأشياء، لو أن «لولو»، قطتنا، تُعيرني روحها، فأسمع حين تقف متحفزة، وتُوجِّه أُذنيها صوب ما لا أسمع، تقف على قدميها الخلفيتين، وتستند على الأماميتين، وتُوجِّه نظرها فأرى ما لا أرى. هل أُصدِّق؟ هل أُكذِّب؟ «إيمان» لا ترد.

يقولون إذا أحببت شخصًا اترك له حرية التواصل معك، لا تضغط عليه، رسالة واحدة قد تكفي.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

«عزيزتي إيمان.. هل أنتِ بخير؟».

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الصوت

أخبري الصغيرين أنني أراهما زهرتين على شاطئ روحي، غزالين في غابة مشاعري، عيناي لا تغفل عنهما، كل شيء أمامي، لكنه بعيد.. بعيد.. وذراعي قاصرة.. تعرفين كيف تنظر الأمهات للأولاد وهم نائمون؟ تعدِّين أنفاسهم وتتحسَّسين جباهم وخُدودهم، تصير وجوههم المُستكينة شاشة تعرض أحداث يومك المُنصرم.. كل المُشاحنات والقُبلات.. «اسكُت يا محمد»، «ذاكري يا ملك»، كل الصراخ والطبطبة.. «ادخل الحمَّام.. لا تضرب أختك.. ساعدي أخاك».. طوال الوقت تُسيطر عليك رغبة خفية في أن ينتهي اليوم، عندما تدقُّ الساعة الثامنة، وتبدئين في تجهيز العشاء، تتجدَّد رغبتكِ في الانعتاق، في التخلُّص من الأثقال، من المسؤولية، من الخوف، من الحذر، في هذه الساعة يدُب فيكِ نشاط غريب.. الدفقة الأخيرة للطاقة، أنتِ الآن على استعداد أن تفعلِي أي شيء كي يذهب طفلاك للسرير، أن يُغمضا عينيهما، تلجئين للمُحايلة، لاختلاق عوالم وحكايات، جن وعفاريت.. يسقط رأسك على مخدَّتهما، دقائق قليلة ينهض «طائر الفيكس» من رماده، تنتبهين، وتعودين للتساؤل والقلق: هل نومهما مُنتظم؟ يُخيفُكِ الصمت والهدوء، ولا تستكينين لهما، تفتقدين الصَّخب الذي أرهق حواسَّكِ، تودِّين أن تُوقظيهم لتطمئني، لتطردي الكوابيس عن أحلامهما.. وأنا هنا، لا أُريد أن أوقظهما، فقط أتمنَّى أن أمُرَّ بأحلامهما.

أكِّدي لهما أنني أُحاول السباحة والطيران كي أطوي المسافات الفاصلة بيننا.. الأمهات لديهن خبرة عميقة في طي المسافات، وتقريب الأشياء، من

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يستطيع أن يفهم طفلًا ويُترجم إشاراته وحروفه غير المترابطة سوى أم؟ بين كل أم وطفلها شفرة؛ كلمة، حركة باليد، تقطيبة في الوجه، ضبط الساعة لا يحتاج لمهارة، فقط حلُّ الشفرة يمحو الغموض، يُزيل اللبس، يُنقذ أرواحًا في الحرب.

اخترعي قصصًا، فأنا أُغافل الملائكة وأتعلَّق بريش أحدهم، لكن الملائكة
Telegram:@mbooks90
لم تعُد تتوجَّه كثيرًا للأرض، الأصوات الصاعدة من الكوكب الأزرق تصم آذانهم، وتُصيبهم بالضجر. الملائكة ليست صبورة، وليس لديها إرادة، أو إصرار، الملائكة منظمون، منضبطون، أبناء مثاليون، لكنهم ليسوا أبناءَكِ، ينقصهم الحميمية، الحماس، الشغف، أبحثُ عن رُسُل آخرين، عن مُوصِّلات مُتناهية الحساسية، أبحثُ عن طريق، عن مسار يصل ملمس أصابعي لفروة رأسيهما.

قولي لهما إنني ذهبتُ لمكان أفضل، لكنني أحِنُّ لمكانهما، وإنني أتدرَّب كي تستطيع أنفاسي أن تُداعب شعريهما، دورات التنمية البشرية لا تكتمل أعداد الدارسين فيها بسهولة، الغالبية لا ينقصهم شيء، ولا يُحاولون تطوير مهاراتهم. فقط الأمهات الشابات يشعرن بتأنيب الضمير، وعلى الرغم من أنها إجازة إجبارية لا خيار لنا فيها، فإنني لا أُكُفُّ عن التفكير، عن التطلّع، عن المُراقبة، عن توجيه الملاحظات، النصائح.. أنا «سيزيف».. أتمنَّى أن تثبت صخرتي قليلًا على الجبل، أن يصل صوتي لطفليَّ، لا أطمع في أكثر من الصوت، ذبذبات هواء، خلخلة الصمت.

اشرحي لهما أنني مُرتبكة؛ فالزمن هنا بلا فواصل، بلا إشارات، بلا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تعاقُب ولا عقارب تُربك صباحاتي وأنا أجهز «محمد» للحاق بباص المدرسة.

ذكّرِي «ملك» بما كُنتُ أُذاكر لها: إن الجاذبية تعتمد على كتلة الكوكب، وأنا في مركز الكون، والمدارات كلها مُنحنية، مُقوَّسة، فلا استقامة بين نقطتين، فقط تيه أبدي.. الفراغ يبتلع الأشياء، الأبدية موت.

أخبريهما أني أُقاوم موتي، وأني أحيا بحياتهما.

Telegram:@mbooks90

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الكاتبة صفاء النجار

مواليد: مايو 1973.

- مدرس بقسم الإذاعة والتليفزيون- الجامعة الحديثة للتكنولوجيا والمعلومات MTI.

- المحرِّر الأدبي لجريدة الدستور المصرية.

- حاصلة على الدكتوراه في الإعلام- جامعة القاهرة.

المؤلفات السابقة:

- «البنت التي سرقت طولَ أخيها»، مجموعة قصصية، دار ميريت، القاهرة 2004.

- «استقالة ملك الموت»، رواية، دار شرقيات، القاهرة، أغسطس 2005.

- «حُسن الختام»، رواية، دار رؤية، القاهرة، مارس 2014.

- «الحور العين تُفَصِّص البسلَّة»، مجموعة قصصية، دار روافد، القاهرة، 2017.

Page 106 / 106

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تم الرفع بواسطة:

Akko :)

Telegram:@mbooks90

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner